د. جلال أمين

العرب ونكبة الكويت

مكتبة مدبولى

الحرب
ونكبة الكويت

الدكتور
جلال أمين

١٩٩١

المحتويات

مقدمة

أثارت مأساة غزو الكويت، وما تلاها من قتال، كل هموم المواطن العربى من جديد: نكأت كل جروح الماضى، وجسّمت بوضوح لا مثيل له كل هموم الحاضر ومخاوف المستقبل: القهر فى السياسة، والتبعية فى السياسة والاقتصاد، والنهب الدولى المنظم لثروة العرب، والتزييف فى وسائل الاعلام، وانتهازية كثير من المثقفين، والاستخدام غير اللائق للدين من جميع الأطراف، لخدمة مصالح ذاتية.

يتناول هذا الكتاب كل هذه الهموم، وهو مجموع مقالات نشرت خلال الشهور الثمانية التى انقضت بين غزو الكويت فى ٢ اغسطس ١٩٩٠، ووقف القتال فى ٢٨ فبراير ١٩٩١. وهى تظهر فى هذا الكتاب بنفس الترتيب الذى ظهرت به لأول مرة. أرجو أن يجد القارىء فيه بعض العون على فهم حقيقة هذه المأساة، وقد يساعده أيضا فى تحديد موقفه السياسى والأخلاقى مما حدث.

جلال أمين

١٨ مارس ١٩٩١

(١)
القديم والجديد فى الوضع العربى

كان الوضع العربى مأساويا بدرجة كافية حتى قبل غزو العراق للكويت، وان لم يخل المشهد من حين لآخر من مفارقات مدهشة كثيرا ما تدعو إلى الضحك بدلا من البكاء. كان الأمر كذلك قبل أن تنتهى الحرب الباردة منذ بضعة شهور وقبل أن تصل الدولتان العظميان إلى تسوية معظم أوجه الخلاف بينهما، فكانت المنطقة العربية، شأنها شأن سائر مناطق العالم، تعكس بشكل مأساوى / كوميدى ما يطرأ من تطورات على العلاقة بين هاتين الدولتين العظميين، وتطور مصالح ورغبات هذه الدولة العظمى أو تلك فضلا عن مصالح ورغبات تلك الدولة المقيتة (إسرائيل) المحميّة بالحق والباطل من جانب الولايات المتحدة. فلما انتهت الحرب الباردة كان من الطبيعى أن تشهد منطقتنا، شأنها شأن سائر مناطق العالم، تقلصات وارتباكات عنيفة كان الغزو العراقى للكويت واحدا من أبشع مظاهرها، وإن كانت كل الدلائل تدل على أن ما رأيناه حتى الآن ليس إلا المشهد الأول من

مسرحية متعددة المشاهد والفصول، يتعرض فيها العرب لمرحلة جديدة من العبث بمقدراتهم، ليست إلا حلقة فى سلسلة طويلة من هذا العبث عمرها أكثر من قرن ونصف، وأن ما يشهده العرب الآن هو بداية مرحلة جديدة من التراجع والانحسار أمام جحافل الغرب، تضاف إلى تجارب التراجع والانحسار الماضية، من احتلال الفرنسيين للجزائر فى ١٨٣٠، إلى ضرب تجربة محمد على فى ١٨٤٠، إلى احتلال البلاد العربية واحدا بعد الآخر ابتداء من عدن فى ١٩٣٩ وحتى ليبيا فى ١٩١١، إلى وعد بلفور فى ١٩١٧، إلى تقسيم البلاد العربية بين بريطانيا وفرنسا فى ١٩٢٠، إلى إنشاء دولة إسرائيل فى ١٩٤٨، إلى ضرب تجربة عبد الناصر فى ١٩٦٧ إلى اتفاقية كامب دافيد فى ١٩٧٩ إلى غزو إسرائيل للبنان فى ١٩٨٢، إلى مرحلة جديدة من الخضوع لارادة الولايات المتحدة التى تقوم الآن بمفردها بإعادة ترتيب المنطقة العربية لصالحها بعد انسحاب الاتحاد السوفيتى منها.

* * *

كان خضوع مصر لإرادة الولايات المتحدة فى أعقاب هزيمة عبد الناصر، قد بدأ يتضح منذ بدأ السادات يتكلم عن السلام فى أعقاب حرب ١٩٧٣ مباشرة، وما تلا ذلك من اتفاقيات فض الاشتباك، ثم أصبح واضحا وضوح الشمس بزيارته المشئومة لإسرائيل فى ١٩٧٧، التى سميت حينئذ بالمبادرة، ثم بتوقعيه اتفاقية كامب دافيد الأكثر شؤما فى ١٩٧٩. وعلى الرغم من نزاهة الرئيس مبارك الشخصية وحبه لوطنه، فقد استمرت السياسة المصرية حتى بعد أن تولى الحكم تعكس نفس الملامح الرئيسية لسياسة

السادات من حيث التبعية للولايات المتحدة. ظهر ذلك في سكوت الحكومة المصرية المطبق على اعتداءات اسرائيل على لبنان والعراق وتونس، بما في ذلك مذابح صبرا وشاتيلا، وفي سكوتها على التعنت الاسرائيلي حتى فيما يتعلق بتطبيق بنود اتفاقية كامب دافيد، وفي امتناع مصر عن أي سلوك عدائي، ولو حتى بالكلام، تجاه الولايات المتحدة رغم ظلمها الصارخ في دعم التصرفات الاسرائيلية وظلمها الصارخ للفلسطينيين، الذي بلغ حدا بالغا من الصفاقة والتجبر في حادثة اكيلو لاورو وخطف الطائرة المصرية في ١٩٨٦.
كان الرئيس مبارك ولايزال يضايقه وصف السياسة المصرية بالتبعية للولايات المتحدة ولكنني، على الرغم من انى أنا أيضا لا أحب اللفظ، لا أجد تعبيرا آخر يفي بالغرض في وصف ما نحن فيه، وقد يكون اللفظ قاصرا لا لأنه يتجاوز الحقيقة بل لأنه يصف العلاقة بأقل من حقيقتها، فالعلاقة بيننا وبين الولايات المتحدة، من نواحي كثيرة أسوأ من علاقة التابع بمتبوعه، ولعل لفظ التبعية أقرب إلى وصف علاقة سياسة مستر ثاتشر بالولايات المتحدة منه إلى وصف علاقة السياسة المصرية بالأمريكية.
والرئيس مبارك نفسه يقول بصراحة أحيانا، حينما يشتد به الضيق، أن من لا يملك غذاءه لا يملك إرادته، وهو ليس إلا تعبيرا بكلمات أخرى عما نقصده.

* * *

ليس من الصعب بالطبع التدليل على تبعية البلاد العربية الأخرى. فأما دول النفط في الجزيرة العربية فتبعيتها العتيدة للغرب منذ عثر فيها على البترول أوضح من أن تحتاج إلى دليل. لقد كانت الوظيفة التاريخية

لحكومات هذه الدول ولا تزال، منذ تدفقت عليها أموال النفط هي «إعادة تدوير» هذه الأموال إلى الغرب بطريقة أو بأخرى، إما بشراء سلع الاستهلاك الترفي، أو إقامة مشروعات قليلة الجدوى للعرب ولكنها كثيرة الربح لشركات الغرب، أو شراء أسلحة عديمة النفع، واستثمار ما يتبقى بعد ذلك من فوائض في بنوك الغرب وشركاته، أو إقراضه لمؤسسات التمويل الدولية لإعادة اقراضها للعالم الثالث طبقا لشروط هذه المؤسسات. مقابل ذلك قنع حكام هذه الدول بالحصول على إيرادات هي أشبه بالعمولات منها إلى أي شيء آخر، تعتبر سخية بالنسبة لحاجة هذه الأسر الحاكمة ولكنها زهيدة جدا بالمقارنة بالثروات التي يسلمونها للغرب.

لم تخل المنطقة العربية بالطبع من حكومات تدعي «الثورية»، ولكن يحار المرء فيما إذ كان هؤلاء «الثوار» الذين بلينا بهم طوال السبعينات والثمانينات، أشد أم أقل ضررا من الحكومات التي كانت تعترف بتبعيتها بدرجة أو أخرى من الصراحة، كحكومات شبه الجزيرة العربية والأردن والمغرب وتونس في ظل بورقيبة. قد يكون بعض هؤلاء «الثوار» قد بدأ حياته حسن النية ومملوءا بالآمال الكبار كالقذافي، ولكنه انتهى مع التدهور السريع في الوضع العربي إلى فقد اتزانه شيئا فشيئا.

وقد اضطر بعض هؤلاء الثوار إلى أن يصبحوا تابعين للاتحاد السوفيتي بدلا من الولايات المتحدة، كحكام سوريا واليمن الجنوبية وليبيا، بينما أدى بعضهم كحكام العراق دور التبعية للغرب ببراعة انطلت على كثيرين. ولكن هؤلاء الضباط العظام جميعا، من النميري في السودان إلى القذافي في ليبيا إلى حافظ الأسد في سوريا إلى صدام حسين في العراق،

لم يكونوا يعبّرون فى الواقع إلا عن طموحات فردية مريضة استخدمتها الولايات المتحدة من ناحية أو الاتحاد السوفيتى من الناحية الأخرى لتحقيق مآربها وراح فى غمار ذلك مئات الآلاف من الضحايا من العرب والايرانيين والافارقة والأكراد قتلوا باسم الاسلام أو العروبة أو الاشتراكية.

* * *

كان من أكثر الأدوار إحكاما من بين ما قامت هذه الحكومات التابعة بتمثيله، دور الغاضب والثائر على موقف مصر من إسرائيل، وعلى توقيع مصر لاتفاقية كامب دافيد. فقد كان من المضحك حقا أن تقوم دول الخليج مثلا، أو الإردن، وهى الضالعة فى التبعية للولايات المتحدة، بتمثيل دور الوطنية والتشدد فى معاداة اسرائيل، والتظاهر بالغضب على مصر (وهى الدولة العربية الوحيدة التى شكلت أى نوع من التهديد لاسرائيل، فى أى وقت من الأوقات) ومقاطعتها سياسيا واقتصاديا عقابا لها على توقيع اتفاقية كامب دافيد، وهى نفس الدول التى اغرت السادات قبل توقيع الاتفاقية بسنوات قليلة بالارتماء فى احضان الولايات المتحدة، وكانت معوناتها لمصر محكومة خطوة بخطوة برغبات وإيماءات السياسة الامريكية وفقا لما تبديه مصر من تنازلات، سواء فى السياسة الاقتصادية أو فى موقفها تجاه اسرائيل. كانت المقاطعة العربية والخصام العربى لمصر عقابا لها على كامب دافيد أمرا مضحكا حقا، ولكن هذه المقاطعة كانت خدمة أخرى رائعة للسياسة الأمريكية والاسرائيلية، إذ أن مصر، وقد تركت وحدها، وجدت نفسها مدفوعة دفعا إلى مزيد من الارتماء فى أحضان الولايات المتحدة ومن الانصياع أكثر فأكثر لمشيئتها، كما سمح لاسرائيل بالاستمرار

فى تمثيل دور الحمل الوديع المحاط من كل ناحية بالذئاب التى تستعد لافتراسه، بينما هذه الذئاب المزعومة هى أقل الكائنات افتراسا وأكثرها استئناسا. ووصلت المهزلة إلى قمتها حينما أخذت هذه الدول المستأسدة نفسها، واحدة بعد الأخرى، تغير موقفها من مصر بدون سبب مفهوم ودون أن يجدّ جديد يبرر هذا التغيير، وتعلن أن مصر، على الرغم من كل شيء هى الشقيقة الكبرى، وأن العرب بدونها لا يساوون كثيرا، وإذا بهذه الدول تعلن بعد قمة عمان فى ١٩٨٧، عودة مصر للعرب وعودة العرب مصر، دون أن تكون مصر قد غيّرت موقفها من إسرائيل قيد أنملة. وكما سبق أن صُوِّر أنور السادات على أنه البطل المغوار وهو عائد من توقيع اتفاقية كامب دافيد فى ١٩٧٩، صورت عودة مصر إلى الحظيرة العربية بأنه انتصار لسياسة الرئيس مبارك، وانتصار لمصر على العرب، بينما الأمر لا يزيد عن أن الاستسلام المصرى لارادة الغرب واسرائيل فى ١٩٧٩، قد انضم إليه الآن استسلام من بقية العرب فى ١٩٨٧، وإعلان القيادة الفلسطينية قبولها للوجود الاسرائيلى فى قمة الرباط.

طوال هذه السنوات العشر التى انقضت على اتفاقية كامب دافيد، كانت الحرب الأهلية فى لبنان مازالت مستمرة بالطبع، دون أن تقوى دولة عربية واحدة على وضع حد لها، وقد شلت قدرة مصر على الحركة شللا تاما ومن ثم تمكنت إسرائيل من وضع يدها على الجنوب اللبنانى ومن ضرب الفلسطينيين ضربة قاصمة ثم إجبارهم على الخروج من لبنان.

وطوال نفس العشر سنوات دفعت الحكومة العراقية إلى شن حرب مشئومة على إيران، دون أن يكون للشعب العراقى فيها ناقة أو جمل، راح

ضحيتها مئات الألوف في البلدين، وتوقفت التنمية بسببها في البلدين عقداً كاملاً، ومثل فيها الرئيس العراقي دور حامي حمى العروبة ضد الخطر الفارسي، وهو في الواقع لا يفعل أكثر من القيام بخدمة مصالح بائعي السلاح من الطرفين، ويعطل نهضة محتملة لايران لبضع عشرات من السنين، فبدّد ثروة العراق وإيران والدول العربية النفطية الأخرى في شراء الطائرات والدبابات باسم العروبة، ثم مثل دور المنتصر، ثم لم يلبث أن أعلن قبوله لكل المطالب الايرانية. فكأنه إذن قد ضيّع أموال العرب وعشر سنوات على الأقل من عمر بلده وعمر إيران من أجل أن تعود أموال النفط من جديد لمنتجي السلاح في الغرب والشرق على السواء.

* * *

بمجرد أن انتهت الحرب الباردة وبدأ عهد الوفاق الجديد بين الدولتين العظميين في أواخر الثمانينات، بدأ المسرح العربي يهتز اهتزازاً شديداً فقدت بسببه بعض القيادات العربية اتزانها فوقعت وقوعاً مثيراً للرثاء والضحك في نفس الوقت. فالذين كانوا لا يزالون ينتقدون السياسة المصرية ومستمرين في تمثيل دور الثائر النقي، لم يجدوا غضاضة فجأة، بعد أن اتفق الروس والامريكان، في أن يتلقوا الرئيس المصري بالأحضان. حدث هذا من الرئيس السوري والرئيس الليبي. واليمن الجنوبي الذي كان يرفع راية الاشتراكية الماركسية اتحد مع اليمن الشمالي الرأسمالي الرجعي، ناهيك بالطبع عن انتهاء الحرب العراقية – الإيرانية فجأة دون أن يكون أحد الأطراف قد حقق شيئاً من أهدافه المعلنة.

ومع كل هذا، فقد كان الرؤساء والملوك العرب طوال هذه الفترة،

يظهرون بكل مظاهر الأبهة والعظمة التى تليق برؤساء الدول التى تتمتع بكامل الاستقلال. فهم يتنقلون من عاصمة عربية إلى أخرى، محاطين بمظاهر التبجيل والاحترام الواجب، ويستعرضون حرس الشرف ويتلقون باقات الزهور من الأطفال الصغار، يصحبهم فى رحلاتهم عشرات الصحفيين والمصوّرين لتغطية مؤتمرات القمة العديدة والزيارات المفاجئة وغير المفاجئة. ليس هذا فحسب، بل كانوا يفاجئوننا من حين لآخر بتكوين تحالفات جديدة باهرة، كمجلس التعاون العربى ومجلس التعاون الخليجى، دون أن يحاولوا إفهامنا ما الداعى إلى تكوين هذا المجلس الآن بين مصر والعراق الشقيق والأردن الشقيق واليمن الشقيق، دون السودان الشقيق وسوريا الشقيقة وتونس الشقيقة؟ وتأتينا الأخبار خلال هذا كله بأن مئات من المصريين قد قتلوا فى شوارع بغداد وأن عشرات أو مئات الجثث حملتها الطائرات المصرية من العراق بعد أن أطلق الجنود العراقيون عليهم الرصاص، فلا تريد الحكومة المصرية أن تجرح شعور الرئيس العراقى الشقيق، ونظل حتى الآن لا نعرف ولا يريد أحد أن يخبرنا بشىء عن عدد القتلى وسبب قتلهم.

كان المثقفون العرب ورجال الاعلام، خلال هذا كله، يقومون خير قيام بإخراج وتجميل هذه المسرحية القبيحة لاظهارها بمظهر مقبول. فبمجرد أن يعلن عن تأسيس مجلس التعاون العربى يهرول المثقفون بطريقة مدهشة لتقديم تفسيرات لهذا التأسيس ويشرحون آثاره المحتملة على نهضة الدول الأعضاء. وإذا انعقد مؤتمر للقمة يقرّ فيه العرب بما سبق أن رفضوه أخذ المثقفون يصفقون ويصيحون: عادت مصر للعرب وعاد العرب لمصر، فى الوقت الذى لا يزيد فيه ما حدث على أن ما بدأ استسلاما من جانب مصر

قد عمّ واتسع وأصبح استسلاما من جانب الجميع. وإذا أعلن صدام حسين أنه يدافع عن العروبة ضد الفرس مع أنه هو الذى هاجم الفرس ولم يهاجموه، ويذيق شعبه العربى والكردى الهوان، نصّبوه زعيما للعروبة وسافروا للاشتراك فى مهرجاناته وعادوا محملين بالهدايا فملأوا صحفهم بالثناء عليه. وإذا أعمل الرجل تقتيلا فى العمال المصريين وامتنع عن صرف مستحقاتهم راحوا يبحثون له عن الأعذار ويطلبون منا الصبر حتى تتحسن الأحوال ويصبح قادرا على الدفع. وهم فى غمار هذا التردى العربى العام الذى لا يعادله تردٍّ، يتكلمون عن بوادر نهضة عربية جديدة تدعو للتفاؤل والبهجة: ألم تعد مصر لتبوّؤ مكانها الطبيعى بين العرب؟ ألم ينتصر العرب على الفرس؟ ألم تبدأ بوادر الوحدة العربية وإن كانت لا تزال فى بدايتها المتواضعة تتمثل فى مجالس التعاون هنا وهناك؟ والحقيقة أن السبب الاساسى للتفاؤل والبهجة هو ما يحصل عليه هؤلاء المثقفون أنفسهم من هدايا وجوائز ومكافآت فى شتى العواصم العربية، المحافظة والثائرة دون تمييز.

* * *

كان هذا هو الوضع فى العالم العربى عندما حدث غزو العراق للكويت فى ٢ أغسطس الماضى. كان الحدث مدهشا حقا فقد اعتاد الناس لفترة طويلة على أن ما يحدث فى العالم العربى لا يزيد فى أحسن الأحوال على عقد مؤتمر للقمة أو تكوين مجلس جديد من مجالس التعاون لا يضر ولا ينفع، بالإضافة إلى هجوم كلامى من حين لآخر من رئيس على آخر تعقبه مصالحة وعناق وتبادل القبلات. أما أن يغزو بلد عربى بلدا آخر على هذا النحو ويعمل فى أهله اذلالا ونهبا ويطرد أميره ويستولى على اذاعته

ثم يضم البلد إليه كولاية من ولاياته، فهو ما لم نشهد مثله ولا رأينا حدثا بدرجة جسامته منذ الخمسينات والستينات حينما كانت تتوالى الانقلابات والثورات العربية فى بلد بعد آخر.

والظاهر أن الجميع قد أخذوا على غرة، من أمير الكويت إلى الرئيس المصرى إلى ملك الأردن، بل الظاهر أيضا من تصرفات مسز ثاتشر وحكومتها والرئيس ميتران وحكومته أن الأوربيين أنفسهم قد أخذوا على غرة، ولم يكونوا يتوقعون شيئا كالذى حدث، وأنهم اضطربوا فترة قبل أن يتخذوا قراراً فيما يجب صنعه. الوحيد الذى بدا لى وكأنه لم يندهش مما حدث، عدا الرئيس صدام حسين بالطبع، هو الرئيس بوش الذى رأيته على شاشة التليفزيون ببذلته الرياضية المثيرة للضحك فى مثل هذه الظروف، وهو يدلى بتصريحاته بين ضربة وأخرى من ضربات كرة الجولف.

كانت تصريحات الرئيس بوش فى اليومين الأولين للغزو تتسم بغموض غريب، فهو لم يزد على قوله، كلما سئل عن الموقف الأمريكى : إن كل الاحتمالات واردة وكل الاختيارات مفتوحة، وكل التصرفات ممكنة. تلت ذلك بضعة أيام تحدّث فيها عن اجراءات اقتصادية مع استبعاد القوة العسكرية. ثم فوجئنا جميعا بعد أن وصلت القوات العراقية سالمة إلى الحدود السعودية وأخذت مواقعها هناك وسيطرت تماما على الموقف، فوجئنا بهذا النقل الكثيف للقوات الأمريكية إلى السعودية وكأنهم سيبقون هناك إلى الأبد. تلا ذلك ما نعرفه من تصريحات أمريكية تتكلم عن احتمالات البقاء فى هذا المكان إلى أجل غير مسمى وحتى بعد أن تنتهى الأزمة، إذ من يدرى أن صداما جديدا لن يظهر فى عمان أو البحرين أو قطر؟.

إن من لم يكن قد لعب برأسه الشك بعد فى الدور الذى يلعبه الرئيس صدام حسين منذ تولى حكم العراق، لابد أن يتساءل عن الدور الذى يلعبه الآن، خاصة إذا أخذنا فى الاعتبار أن العالم كله يدخل الآن مرحلة جديدة تحتاج إلى تخطيط جديد وإعادة تنظيم شاملة لعالم ما بعد الحرب الباردة وانسحاب الاتحاد السوفيتى كقوة عظمى، وهى مرحلة لها أوجه شبه كبيرة بالمرحلة التى تلت انتهاء الحرب العالمية الثانية، حينما بدأت الولايات المتحدة تنفيذ مخطط جديد بعيد المدى لمنطقة الشرق الأوسط وغيرها، اتسم من بين ما اتسم به، بالاعتماد على الانقلابات العسكرية والتحالفات الجديدة، وصولا إلى إزاحة النفوذ البريطانى والفرنسى من المنطقة ثم إلى ملء الفراغ الذى خلفته ازاحة هذا النفوذ. الآن يوجد أيضا «فراغ» جديد نشأ بتقلص واختفاء النفوذ السوفيتى، وهناك أيضا تنافس جديد حاد ومتسارع النمو بين أمريكا وحلفائها من الأوربيين واليابانيين، وقد أصبح البترول العربى أحد أهم الأوراق الأساسية التى يلعب بها الأمريكيون فى جولتهم الجديدة مع أوربا الغربية واليابان، بعد أن اختفت الورقة الأساسية من اللعب وهى الخطر السوفيتى. إلا يجدر بالأمريكيين أن يحكموا قبضتهم على هذه الورقة الأساسية فى الجولة الجديدة؟ وهل حقا تناسب المرحلة الجديدة نفس النظم العشائرية التقليدية التى أجلسها الأمريكيون على النفط منذ الحرب العالمية الثانية وحتى الآن؟ أم أن الأمر يحتمل نمطا جديدا للحكم والسياسة والعلاقات العربية؟ ثم ألا يجدر الآن حل المشكلة الفلسطينية حلا شبه نهائى بما يحقق لاسرائيل أرضا أوسع تستقبل فيها المهاجرين السوفيت الجدد ويقضى على صداع دام نصف قرن؟ لا يمكن لنا بالطبع أن نتكهن بشكل

النظام الجديد، ولكنه نظام جديد لا محالة، تم تخطيطه ورسمه بلا شك، وبدأ عرضه علينا فى ٢ أغسطس، ولكن مشاهده تعرض ببطء ولن نستشف منها المقصود إلا شيئا فشيئا.

ليس من المناسب فى إعادة ترتيب جديدة بهذه الخطورة أن تلعب اسرائيل دورا مرئيا، بل الأنسب أن تتوارى عن الأنظار والاسماع تواريا تاما، حتى يتم استدعاؤها فى الوقت المناسب. ذلك أنها على الأرجح أحد المستفيدين الأساسيين من التخطيط الجديد، ومن الأفضل ألا يتضح ذلك فى البداية، إذ أن هذا من شأنه الهاب العواطف واثارة هياج قد يفسد بسببها الأمر برمته. الأفضل أن يقوم بدور البطولة عربى مغوار، محب للمغامرة، سبقت تجربته بنجاح مع الثورة الإيرانية، نتركه يتكلم باسم الوحدة العربية تارة، والإسلام تارة أخرى، والفلسطينيين تارة ثالثة، وتوزيع الثروة والعدالة الاجتماعية تارة رابعة.

* * *

بدخول الجيش العراقى دولة الكويت ارتفع الستار فى كل مكان عن مشاهد كانت محتجبة عن الأنظار فعمت الفضيحة أنحاء العالم العربى. فمما ظهر للعيان، وقد كان الجميع يعرفونه ولكن يفضلون غضَّ البصر عنه، أن جزءا كبيرا من الشعب الكويتى كان يقضى شهور الصيف فى الخارج، والأسرة الحاكمة كلها، كانت أو أسرعت بالهرب إلى الخارج. ولم نسمع مثلا عن وزير كويتى تم اعتقاله أو وكيل وزارة اصيب برصاصة أو بجرح، أو عن أن الجيش الكويتى، الذى أنفقت عليه بلايين الدولارات، قد اشترك فى معركة. سمعنا فقط عن خادمات من الفلبين وسيرى لانكا والهند وبنجلادش

يتعرضن للمخاطر وبعضهن للاغتصاب وقد هرب مخدوموهن بسياراتهم عبر الحدود. المشهد محزن إلى أبعد مدى: المخدومون أصحاب البلد لا يصيبهم سوء لأنهم إما كانوا قد هربوا من حرارة الصيف إلى أوربا أو القاهرة أو استانبول أو لأن لديهم السيارات والأموال اللازمة للسفر والتي يستطيعون بها رشوة الجنود العراقيين إذا لزم الأمر، وأما الخادمات الآسيويات اللاتي كن قد تركن أطفالهن في قراهم أو مدنهم الآسيوية وجئن إلى الكويت لكي يرسلن قيمة الطعام لأطفالهن، فيتركن لمواجهة القوات العراقية مع ما لا يستحق حمله من متاع، وربما نسي المخدومون حتى أن يتركوا للخادمات البائسات جوازات سفرهن التي كانوا يحتجزونها خوفا من تركهن الخدمة دون إذن، هؤلاء المستضعفون في الأرض، عبيد وأقنان القرن العشرين، يظلون هم المستضعفون في الأرض تحت كل الظروف، وقبل الغزو العراقي وبعده، في الحياة كما في الموت.

كان منظر السيدات والبنات الكويتيات وهن يبكين بحرقة في شوارع لندن، كما رأينا في الصور، ويندبن وطنهن الذي لا يستطعن العودة إليه، مثيرا للحزن والعطف، ولكنهن على الأقل كن في لندن، وحولهن على الأرجح أزواجهن وأبناؤهن، ولديهن في الغالب من المال في بنوك أوربية أو أمريكية ما يستطعن السحب منه، ولم يكن هذا حال عشرات الآلاف من المصريين في الكويت، الذين باعوا ما يملكون في مصر ليشتروا شهادة «عدم الممانعة» في دخول الكويت، ثم استدانوا حتى يعثروا على عمل، ثم ضاعت مدخراتهم القليلة وسرقت منهم المروحة اليابانية والثلاجة والتليفزيون التي قضوا من أجلها الشتاء والصيف في الكويت. سرقها جنود مثلهم من

المستضعفين فى الأرض، جوعهم صدام حسين ليشترى الدبابات والطائرات من أصحاب مصانع الأسلحة فى أوربا والولايات المتحدة، فأصاب هؤلاء الجنود التوحش وهم يدخلون أرض الكويت، ولم يجدوا من ينهبونه ويعتدون عليه الا أمثالهم من المعذبين فى أرض الكويت.

* * *

على أن فى الأمر جوانبه المضحكة أيضا. فقد مرت ساعات طويلة بل وبضعة أيام على غزو العراق للكويت دون أن يصدر تصريح واحد من المملكة السعودية أو الامارات أو سائر الدول الأعضاء فى مجلس التعاون الخليجى، أو حتى من جمهورية مصر العربية : الكويت يجرى غزوها واحتلالها ولا تنبس السعودية بحرف؟ وبقية الأعضاء فى مجلس التعاون الخليجى لا ينبسون ببنت شفة؟ والحكومة المصرية لا تتكلم حتى ينطق ناطق بلسان البيت الأبيض؟ فإذا نطق البيت الأبيض خرجت البيانات من الحكومات العربية، واحدة بعد الأخرى، فى حذر أولا ثم فى طلاقة لسان. مشهد يدعو للرثاء حقا، تتلوه التصريحات الأمريكية بأن الولايات المتحدة سترسل عشرات الألوف من الجنود إلى السعودية لحمايتها ومعهم كميات غفيرة من كافة أنواع الأسلحة. فأين إذن أسلحة السعودية التى انفقت عليها عشرات البلايين من الدولارات منذ تدفقت ثروة النفط؟ لأى شىء كانت تشترى هذه الأسلحة إذا كان الأمر يتطلب تدخلا بهذا الحجم، ليس فقط من الولايات المتحدة بل وأيضا بعض المساعدة من دولة فقيرة كمصر؟ ما معنى الثروة السعودية بالضبط وما الذى كان يقصده المتكلمون عن «النفوذ السعودى» إذا كان الأمر بهذا الضعف؟ ولماذا كان الكونجرس

الأمريكي يتشدد وهو يبحث بيع الأسلحة للسعودية؟ من أى شيء كانوا يخافون؟ فها قد اتضح أن السعودية لا تستطيع بكل أسلحتها أن تؤذى ذبابة، ناهيك عن الصمود للجيش العراقى أو الإسرائيلى؟ وهل كان أساتذة السياسة الدولية والعلاقات العربية العظام يضحكون على عقولنا أم على أنفسهم وهم يتكلمون عن صراع القوى بين النظم العربية المختلفة، وعن «الحقبة السعودية» أو عن «النظام الاقليمى العربى» أو عن التنافس بين الحكومات العربية على «زعامة» العالم العربى.. إلخ؟

أما إرسال مصر لبعض القوات إلى السعودية فليس من الواضح بالضبط ما يحققه من نفع. فمن الواضح أن الجيش الأمريكي يكفى وزيادة لحماية الأماكن المقدسة وحقول النفط، وأن بضعة آلاف من الجنود المصريين لن يضيفوا إلى هذه القوة كثيرا. الفائدة الوحيدة، فيما يبدو، هى إسباغ بعض القبول على الوجود الأمريكي فى الجزيرة العربية، ومن الواضح من التصريحات الأمريكية أن وصف القوات الموجودة هناك بأنها قوات «دولية» و«متعددة الجنسيات» يجعل الأمر أكثر قبولا بكثير أمام الرأى العام الأمريكي، فلا يعيد لهم ذكرى فيتنام، وإن كان يذكّر باشراك بريطانيا للجيش المصرى معها فى فتح السودان منذ مائة عام حتى تتجنب القيل والقال من جانب الدول الأوروبية المتنافسة معها على التهام إفريقيا. طبعا تستطيع مصر أن تجد الكثير من الكلام الجميل عن وقوفها إلى جانب شقيقتها السعودية، واشتراكها فى حماية الأماكن المقدسة، والوقوف فى وجه جيش غاز ظالم أطاح بدولة مسالمة هى الكويت. كل هذا كلام جميل ولكنه لا يمس جوهر الحقيقة. فالحقيقة هى أن مصر تفعل كل ذلك لأن الولايات

المتحدة تريد منها ذلك، وأن القوات المصرية لن تفعل شيئا لا تريد منها الولايات المتحدة أن تفعله. إذا قررت أمريكا الهجوم فعلت وإذا قررت الوقوف حيث هي وقفت. وقد وضعت القوات المصرية والسعودية القليلة فى الصف الأول على الحدود الكويتية ووقف وراءها الجنود الأمريكيون ليقوموا بالواجب إذا عجز عنه المصريون.

فى مقابل هذا أعلن أن مصر سوف تعفى من الديون العسكرية المتراكمة عليها لصالح الولايات المتحدة، وهى فى أكثرها فوائد متراكمة عجزت مصر عن سدادها، وما ليس بفوائد هو مبالغ حصلت بها مصر على أسلحة لم تستخدمها قط فى معركة وطنية أو قومية، بل ها هى تستخدم بعضها الآن فى معارك الولايات المتحدة. وقد كانت الحكومة الأمريكية تتعلل دائما بأنها لا تستطيع التنازل عن هذه الديون لعذر سخيف تقدمه بعد آخر، فها هى الآن تعلن عن تنازلها عنها عندما قدر أن هذا فى مصلحتها. ولكن الطريف أن القرار ظل ينتظر موافقة الكونجرس، رغم ما احيط به من دعاية من الجانبين، والكونجرس قد لا يتخذ قراره، على حد قول وزير الخارجية الأمريكى إلا فى اوائل ١٩٩١ هناك إذن أربعة أو خمسة أشهر على الأقل يمكن للحكومة الأمريكية أن تبتز خلالها من مصر ما تشاء من تنازلات، اقتصادية أو عسكرية أو - طبعا - تنازلات لصالح اسرائيل، قبل أن تنعم علينا بالموافقة النهائية على إلغاء الدين العسكرى. وأيا كان الأمر، فإن المبلغ يجرى تعويضه فورا من ناحية أخرى.

إذ فلنلتفت إلى ما يتم صنعه بالسعودية وبأموال دولة الكويت التى كانت تدخرها لتأمين مستقبل شعبها لمواجهة ظروف من هذا النوع.

السعودية المسكينة تتعهد بدفع كل نفقات الحملة العسكرية الأمريكية، وأمير الكويت المعزول يتعهد بأن يدفع ما قيل إنه أربعمائة مليون دولار شهريا للخزانة الأمريكية بالإضافة إلى مائة مليون شهريا من الامارات، لتمويل نفس الحملة التى تزعم أنها اتت لحمايتهم من جيش صدام حسين، الذى سبق أن بدد بلايين مماثلة، عربية وايرانية، لصالح نفس الخزانة.

* * *

فى غمار هذا كله تستمع إلى وسائل الاعلام البريطانية والأمريكية فيصيبك الهلع مما تتحلى به هذه الدول المتمدينة من نفاق: هجوم بذىء مستمر على صدام حسين وهو ربيبتهم وصنيعتهم، يصدر حتى من فم السيدة المحترمة تاتشر، وإمعان فى المبالغة فى تصوير قوة صدام حسين وجبروته، وهم الذين باعوا له الطائرات والدبابات طمعا فى ماله ومال العرب، وتخويف من أسلحته الكيماوية وهم الذين علموه استعمالها وباعوا له الصواريخ اللازمة لاطلاقها. وهم ينتهزون الفرصة بالطبع لتصوير صدام حسين على أنه يمثل العرب كلهم بل وسائر المسلمين حتى يتعلم أطفالهم أن العربى أو المسلم مجرم بطبعه، سافل بطبعه، ومتوحش بطبعه. ثم يصرخون فزعا وهلعا لدى ظهور طفل بريطانى صغير اسمه ستيوارت فى التليفزيون بجوار صدام حسين، وكأن الرئيس العراقى سيأكله وينهش لحمه. ذلك أن صدام حسين فى محاولة يائسة لتحسين صورته لدى الرأى العام العالمى قد ظهر فى التليفزيون العراقى وحوله مجموعة من الأسر الأوربية المحتجزة فى بغداد وجعل المصوّر يصوّره وهو يلاطف هذا الطفل الانجليزى ستيوارت، فظهرت الجرائد البريطانية فى اليوم التالى وعلى صفحتها الأولى صور

مكّبرة لهذا الطفل وهو ينظر إلى الرئيس العراقى بخوف يختلط بكبرياء. والرئيس العراقى يحاول أن يبدو وكأنه إنسان رحيم لا يريد بالأطفال الإنجليزى سوءا. فإذا بالقيامة تقوم فى انجلترا لأن الرئيس العراقى يرعب الأطفال الإنجليز ويستخدمهم فى الدعاية. وكتبت بعض الصحف تتخيل شعور هذا الطفل حينما لمسه الرئيس بيده، وتصف القشعريرة التى لابد أنها سرت فى جسده عندما لمسه هذا العربى بيده. الدنيا إذن تقوم إذا مست مشاعر الطفل الإنجليزى ستيوارت، ولكن مشاعر عشرات الألوف من العمال المصريين وزوجاتهم وأطفالهم الذين يتعرضون للضرب والاهانة والطرد إلى الصحراء ويقاسون العطش والاذلال وهم يقطعون مئات الاميال ليصلوا إلى وطنهم خالى الوفاض ولا يطمعون فى أكثر من كوب ماء وتأشيرة مرور، مشاعر هؤلاء وعشرات الآلاف من النساء من الفلبين وسيرى لانكا والهند وبنجلاديش اللاتى يتعرضن لنفس المصير لا تلتفت إليها جرائدهم وتليفزيوناتهم إلا عرضا، مع أن هؤلاء لم يضطروا إلى تلك الهجرة المشئومة إلى الكويت إلا بسبب سياسات اقتصادية غاشمة فرضها حكام مرتشون وضعتهم السياسة الأمريكية والأوربية على رأس دولهم تحقيقا لنفس الغرض المعروف: تحويل ثروات بلادهم إلى جيوب الامريكيين والأوربيين. المهم هو ما قد يشعر به هذا الطفل الأبيض ستيورات ذو الشعر الأصفر والعيون الزرق، على الرغم من أن الأطفال الإنجليز العائدين قد صرحوا هم أنفسهم لدى وصولهم إلى مطار لندن بأنهم عوملوا معاملة طيبة ولم يحرموا من أى شىء، ولم يعانوا إلا من القلق والتلهف على العودة إلى الوطن.

* * *

انقسم المثقفون المصريون انقساما فى تناولهم للموضوع. هناك حفنة ضئيلة للغاية لم تجد غضاضة فيما فعله صدام حسين، مدفوعة إما بمصالح شخصية أو بخطأ فادح فى رأيى فى تشخيص دوافع التصرفات العراقية. الغالبية ذهبوا إلى شجب العدوان العراقى ووقفوا إلى جانب الكويت، لابد أن بعضهم قد دفعه إلى ذلك أن هذا هو الموقف الرسمى المصرى، ولكنى أعتقد أن رد الفعل الطبيعى لدى المصرى هو الامتعاض من مثل هذه الأعمال الخالية من الإنسانية والتعاطف مع «عزيز قوم ذل». إن المصرى على استعداد دائما للتغاضى عن أى تفاوت غير مبرر فى الثروة وقبول مركزه الطبقى ونسيان أى إساءة قديمة، ومن ثم فإنه سرعان ما يضع نفسه موضع الكويتى ويتصور كيف يمكن أن يكون شعور الكويتى وقد فقد ماله وبيته ووطنه.

وأعتقد أن شعورا كهذا هو الشعور الذى يسيطر على تصرفات وتصريحات الرئيس المصرى ويشكل انفعالاته الاساسية فى الأزمة، بصرف النظر عن صواب أو خطأ قرار سياسى معين.

على أن جزءا من المثقفين المصريين بلغ بهم الحماس ضد الغزو العراقى حدا منعهم من رؤية الدوافع الحقيقية لمجىء القوات الأمريكية إلى الخليج، فتحمسوا لهذه القوات وكأنها هى المنقذ للعرب، بينما الأمر يبدو لى على نحو مختلف تماما: أن مجىء القوات الأمريكية ليس عملا مضادا لغزو الكويت بل هو عمل مكمّل له، وأن القوات الأمريكية لم تأت لتطرد قوات صدام حسين بل إن قوات صدام حسين قد أتت لكى تأتى وراءها القوات الأمريكية.

إلى جانب هؤلاء هناك عدد صغير من المثقفين تعوّدوا اتخاذ الحيطة والتزام الحذر. إذ أن الأمور لم تتضح بعد، وهم لا يستطيعون التكهن بما إذا كان صدام حسين سوف يسقط أو لا يسقط، سينسحب من الكويت أو لن ينسحب، ولا ما إذا كانت عائلة الصباح سوف تعود إلى حكم الكويت أو لا تعود، ومن ثم فهم يرون أن من الحكمة عدم التعبير عن رأى واضح أو مفهوم، إذ ربما قالوا شيئا ندموا عليه في المستقبل. وهناك على أى حال الكثير مما يمكن أن يقال مما لا يغضب صدام حسين بشدة ولا عائلة الصباح، كأن يتكلمون عن عيوب العرب بصفة عامة، وعن أن ما حدث كان نتيجة لغياب الديمقراطية بصفة عامة، أو بسبب لا عقلانية العرب بصفة عامة، ولا بأس من الاقرار بخطأ مغتفر لصدام حسين وخطأ مغتفر لعائلة الصباح، من النوع الذى لا يترك أثرا عميقا فى النفس ويسهل نسيانه. أسلم السبل إذن هو أن ننقد العرب دون أن ننقد حاكما بعينه، والعرب على أى حال قد مرّ عليهم زمن طويل وهم «ملطشة» العالم، فليس هناك ضرر كبير من أن تنضم إلى زمرة الضاربين والشاتمين، ولن يعتب عليك أحد لا من الغرب ولا من الشرق، بل ولا من العرب أنفسهم الذين بلغت بهم الاستهانة بالنفس حدا جعلهم يستطيبون الهوان.

(٣)

نكبة الكويت..

وجهاز الفيديو الصغير

لفت نظرى وأنا أتابع أحداث نكبة الكويت، كثرة تردد الاشارة إلى جهاز الفيديو فى مناسبات مختلفة. ففى الأيام الأولى تضمنت الأنباء إشارات متناثرة إلى أن الجنود العراقيين كانوا يستولون على أجهزة الفيديو التى يجدونها فيما يقتحمونه من بيوت. ثم دلت التقارير الواردة من الكويت والعراق، والتى تصف أحوال الهاربين من الكويت، على أن الشىء الذى يتكرر ظهوره فى أمتعتهم هو جهاز الفيديو، وأنهم كانوا أحيانا يخبؤنه فى داخل أحشية السيارات لمنع وقوعه فى أيدى الجنود العراقيين، وأن الجنود العراقيين الواقفين على الحدود كان أول ما يسألون عنه هؤلاء المتلهفين على عبور الحدود هو ما إذا كان هؤلاء الهاربون يحملون جهازا

للفيديو. فإذا عبروا الحدود كانوا كلما مروا بمدينة أو قرية عراقية استوقفهم الناس يعرضون عليهم شراء أجهزة الفيديو منهم مقابل تقديم ما يحتاجونه من غذاء أو ماء.

ويبدو أن هذه الاشارات المتعددة إلى جهاز الفيديو أخذت تتراكم فى عقلى الباطن حتى كنت كلما استسلمت للنوم، أحلم أحلاما تدور كلها حول جهاز الفيديو. ولكن حلما واحدا مزعجا كان يتكرر أكثر من غيره ويجعل نومى مضطربا للغاية، واستمر يلازمنى نحو اسبوع، ثم انقطع عنى الحلم تماما، وشعرت بعد ذلك براحة ما بعدها راحة، ليس فقط لذهاب هذا الكابوس الفظيع، ولكن لأنى عندما استرجعت أحداث الحلم بتأن، تبينت أنه كان يتضمن تفسيرا شاملا لنكبة الكويت من أولها لآخرها، ولم تعد تعذبنى بعد ذلك محاولة البحث عن تفسير للهجوم العراقى، أو قدوم الجيش الأمريكى، أو تصرف هذه الحكومة العربية أو الأوروبية أو تلك. واتضح لى أن السبب الحقيقى لنكبة الكويت ليس هو الرئيس صدام حسين، ولا الرئيس بوش، ولا سلوك الأسرة المالكة الكويتية، ولا شىء من هذا القبيل على الاطلاق. بل أن السبب الحقيقى ليس إلا جهاز الفيديو، كما سيتضح للسادة القراء عندما أروى لهم ما رأيته فى الحلم.

* * *

ظهر فى الولايات المتحدة وباء خطير سرعان ما انتشر انتشار الطاعون، يتمثل فى لوثة عقلية تصاحبها بعض الأعراض الهستيرية والهياج، وبعض الميول العدوانية، وفقدان المريض للقدرة على السيطرة على

نفسه. كانت أعراض المرض فى مراحله الأولى هينة جدا ، ولا يترتب عليها أى إيذاء للغير ولا تستلفت النظر كثيرا ، وهى الانخفاض فى القدرة على التركيز، وفقدان القدرة على القيام بأبسط العمليات العقلية، كعمليات الجمع البسيطة وتكوين الجمل المفيدة أو كتابة أبسط أنواع الخطابات. كان المصاب بهذا المرض، مثلا، إذا أراد أن يرسل إلى أبيه أو أمه خطابا يصف فيه رحلة قام بها لجأ بدلا من كتابة خطاب بالطريقة المألوفة، إلى شراء كارت مطبوع عليه ثلاث أو أربع عبارات مثل : كانت رحلة جميلة، كانت رحلة جميلة جدا ، كانت رحلة فاشلة، فيؤشر على احدى العبارات التى يعتبرها أقرب العبارات إلى الصحة ثم يوقع باسمه ويرسل الخطاب. ولكن المرض يتحول فى مرحلة لاحقة إلى الميل إلى الانغلاق التام على النفس وعدم الرغبة فى تبادل الحديث مع أى إنسان وفقدان القدرة على الضحك بل وعلى مجرد الابتسام، وإتيان بعض الأعمال الانفرادية غير المألوفة تماما . من ذلك مثلا أن المصاب بهذا المرض إذا أراد أن يستمع إلى برنامج إذاعى كنشرة الأخبار أو بعض المقطوعات الموسيقية، بدلا من أن يتصرف التصرف الطبيعى كأن يجلس بجوار المذياع أو أمام التليفزيون ويضغط على الزر المناسب، بدلا من ذلك يقوم بارتداء بذلة غريبة زاهية اللون ويسرع بالخروج من المنزل وعلى اذنيه سماعتان صغيرتان يتصلان بجهاز راديو صغير، وبمجرد خروجه من المنزل يشرع فى الجرى حول منزله عشرات وأحيانا مئات المرات، لا ينظر يمينا أو يسارا ولا يبادل احدا التحية إذا حيّاه ولا يتوقف عن الجرى مهما حدث له، ولو قابل فى طريقه صديقا قديما لم يره منذ سنوات. وما أن ينتهى البرنامج الاذاعى حتى يعود إلى بيته. وفى

مرحلة ثالثة كان المريض يظهر استعدادا مخيفا للاعتداء على الغير دون أي مبرر، بالضرب أو حتى اطلاق الرصاص أو بخطف الأطفال الصغار، ثم يعقب ذلك حالة اكتئاب شديدة تنتهى فى أحوال كثيرة بالانتحار.

* * *

بدأ الأمر محدودا وبدرجة لم تلفت نظر أحد، قبيل الحرب العالمية الثانية أو فى أعقابها مباشرة، ثم انتشر انتشار النار فى الهشيم، حتى أن البعض الآن يعتقد أن ثلاثة أرباع أصحاب المناصب العليا فى الدولة، بما فى ذلك موظفى البيت الأبيض، قد أصيبوا بصورة أو أخرى منه، بل يقال إن ما لا يقل عن نصف موظفى وزارة الصحة الأمريكية قد اصابتهم هذه اللوثة، ومن ثم أصبحوا عاجزين عن القيام بواجبهم فى مكافحته أو علاجه.

على الرغم من هذا الانتشار الواسع للمرض فإن المبالغ المخصصة للبحوث التى تحاول اكتشاف أسبابه كانت أقل من ١٪ من المبالغ المخصصة لأمراض أخرى أقل خطورة منه بكثير كالسرطان. وقد كان هذا أمرا غريبا للغاية. فهذا المرض ليس فقط أكثر انتشارا من السرطان، ولكن كان بعكس السرطان، ينتقل بالعدوى، ويشل القدرات العقلية للمريض، وهو أكثر انتشارا بين صغار السن منه بين المسنين. الأدهى من ذلك أن المصاب بهذه اللوثة، بعكس المريض بالسرطان، كان بسبب طبيعة المرض نفسه، لا يعرف ولا يصدق أنه مريض، مهما كانت المحاولات المبذولة لاقناعه، ومن ثم نجد

من المصابين من لا يتورع عن تولى مسئوليات على أكبر قدر من الخطورة كمسئولية وضع السياسات الخارجية والاقتصادية وسياسات الأمن القومى.. إلخ.

* * *

فى أوائل الستينات ألقى أستاذ أمريكى لعلم النفس، وهو من أصل صينى، محاضرة تتضمن نتائج بحثه عن أسباب هذا المرض، كان وقعها على الحاضرين كوقع الصاعقة. فقد ذهب إلى أن هناك علاقة شبه مؤكدة بين هذا المرض وجهاز الفيديو. صحيح أن الحالات الأولى للمرض أقدم حتى من اختراع الفيديو نفسه ولكنه أكد أن الفيديو يعمل على تكاثر بعض الخلايا فى المخ وضمور خلايا أخرى بحيث أن أى استعداد طبيعى لدى الفرد للاصابة بهذا المرض تتضاعف قوته بالتعرض الطويل لجهاز الفيديو. وقد دعم الأستاذ نتائجه المعملية بتحليل احصائى أظهر وجود علاقة ارتباط قوية بين شدة المرض وعدد ساعات التعرض للجهاز، وانتشار المرض بدرجة أكبر فى الولايات الأمريكية الأكثر استخداما للفيديو، وانتشاره الأكبر بين صغار السن الأكثر تعرضا للجهاز.. إلخ.

غنى عن البيان أن أصحاب الشركات المنتجة لجهاز الفيديو وأشرطته اصابهم ذعر عظيم عندما اطلعوا على نص المحاضرة، ومن ثم شرعوا على الفور فى شن حملة جبارة انفقوا عليها مئات الملايين من الجنيهات لمنع وسائل الاعلام من الإشارة إليها، ونجحوا بالفعل فى ذلك. كان الدافع إلى ذلك هو بالطبع ما كانوا يحققون من أرباح خيالية من بيع الجهاز والأشرطة.

ولكن لم يكن هذا هو السبب الوحيد. ذلك أن عددا كبيرا من منتجى الفيديو، كانوا هم أنفسهم من المصابين بالمرض، ومن ثم لم يكن لديهم أى استعداد لتصديق ما جاء بالمحاضرة. كان هؤلاء ينفقون الجزء الأكبر من أرباحهم على شراء أجهزة الفيديو التى يقومون هم بإنتاجها، سواء لأنفسهم أو لأولادهم وأصدقائهم، حتى قيل أن لدى كل منهم، من فرط ثرائهم، جهازا للفيديو فى كل ركن من أركان كل حجرة، من حجرات كل بيت يملكونه بمختلف أنحاء المعمورة، من الولايات المتحدة إلى اسبانيا إلى جنيف إلى جزر هاييتى، بما فى ذلك جهاز واحد على الأقل فى دورة المياه وآخر فى السيارة.. إلخ. لجأ هؤلاء المنتجون إلى تنفيذ فكرة جهنمية وهى تمويل حملة دعاية واسعة تضخم بشدة من خطورة أشياء أقل أهمية بكثير، فأشاعوا أن هناك أضرارا محققة تنتج عن استهلاك القهوة والشاى واللبن والسكر واللحم والدجاج والسمك والبيض.. إلخ. بحيث انشغل الناس انشغالا عظيما بالبحث عن شىء يأكلونه دون أن تترتب عليه الوفاة، وانصرفوا بذلك انصرافا تاما عن التفكير فى أعراض اللوثة العقلية أو أسبابها.

كان من المهم جدا على أى حال ألا يطلق على المرض أى اسم على الاطلاق، على أمل أن عدم وجود اسم له سوف يساعد على تجاهل المرض شيئا فشيئا، ويجعل من الصعب التفكير فيه مستقلا عن غيره، حتى يتم نسيانه تماما. وهذا هو بالضبط ما حدث. فالكتب والمجلات قد تشير من حين لآخر إلى ما تعانى منه «حفنة صغيرة» من الأمريكيين من «كسل عقلى»، وحفنة أخرى من «اتجاه عدوانى»، ولكنها لا تشير إلى وجود مرض بهذا الصدد، ناهيك عن وباء، بينما امتلأت الصحف ووسائل الاعلام

بالحديث عن مضار التدخين والكولسترول وتناول الأطعمة الدسمة.

* * *

لم يكن غريبا أن ينتشر المرض بسرعة فى أوربا الغربية، ففضلا عن العلاقات التجارية الوثيقة بينها وبين الولايات المتحدة وسهولة استيراد الفيديو منها بل وانتاجه محليا بتصريح من الولايات المتحدة، فإن تركيبة المخ الأوربى، أى نسبة بعض أنواع الخلايا إلى بعضها الآخر، كانت شبيهة بتركيبة المخ الأمريكى، ومن ثم كانت تجعله على استعداد كبير للإصابة بالمرض كما بيّن الأستاذ ذى الأصل الصينى.

كان حال اليابان مختلفا بعض الشيء. فعلى الرغم من كثرة منتجى الفيديو فى اليابان وتحقيقهم لأرباح خيالية من إنتاجه، فإن اليابانيين لم يكونوا، هم أنفسهم، شديدي التعلق بالجهاز. كانوا فى الأساس ينتجونه لغيرهم، كما كان معظمهم على وعى تام بخطورته، ولم تدمن مشاهدته إلا نسبة صغيرة منهم. على أى حال كانت غالبيتهم مشغولة بإنتاج الجهاز لدرجة لم تكن تترك لهم وقت فراغ للتفرج عليه. لم يكن أحد يدرى بالضبط ما الذى كان يفعله اليابانى عند عودته إلى البيت وبعد انتهائه من إنتاج الفيديو، ولا يزال هذا الأمر لغزا يحيّر الناس حتى هذه اللحظة.

* * *

أما الجانب المأساوى حقيقة فى قصة انتشار الفيديو فكان ذلك المتعلق بالعالم الثالث. لا أحد يزعم أن حالة هذه البلاد كانت سعيدة قبل أن يدخلها الفيديو، ولكن من المؤكد أن حل مشكلاتها لم يكن عن طريق

استيراد الفيديو أو إنتاجه. ربما كان من المقبول إلى حد ما القول بأن المشاهدة المستمرة للفيديو تكفل لك نسيان مشاكل الجهل والفقر والمرض، ولكن أن تزعم أن شراء الفيديو كفيل بالقضاء على هذه المشاكل وليس مجرد نسيانها، فهذه هي الأكذوبة الكبرى. ومع ذلك فهكذا صور الأمر لدول العالم الثالث: قيل لها أن السعادة الحقيقية هي في الجلوس أمام شاشة الفيديو، وروج لهذه الأكذوبة بمختلف وسائل الخداع وغسيل المخ، بما في ذلك بالطبع استخدام الجنس، الذي ثبتت فعاليته مع أشد الناس رزانة ورباطة جأش، وبما في ذلك أيضا سلاح آخر لا يقل عن الجنس فعالية وهو إثارة الاحساس بالدونية وخوف المرء من فقدان احترام الناس إذا بقي هو وحده دون الناس جميعا بدون جهاز فيديو. وهكذا لم يمض وقت طويل حتى أصبح الهدف الأول لكل وزير أو رئيس للوزراء في العالم الثالث، أن يحصل لكل ابن من ابنائه، بمجرد تخرجه من الجامعة، على وظيفة تضمن له الحصول على فيديو في أسرع وقت ممكن، وحبذا لو كانت هذه الوظيفة في أحد مكاتب تصدير واستيراد جهاز الفيديو نفسه.

* * *

ساعد على انتشار هذا الغرام بالجهاز، ما أخذ يتدفق من المطابع من كتب ومقالات، وما تكرر عقده من مؤتمرات، في كافة عواصم العالم، تشرح العلاقة بين الفيديو والنهضة، بل وما ذهب إليه الكثيرون من اعتبار كلمة الفيديو مرادفة تماما لكلمة النهضة. وكرس المشتغلون بالعلوم الاجتماعية، بكافة فروعها، جهدهم لدراسة موضوعات، انصبت عليها معظم رسائل الدكتوراه، مثل: التعليم والفيديو، صحة الطفل والفيديو، المرأة والفيديو،

بل وصل اهتمام أحد الباحثين بهذا الأمر إلى حد أن انفق من عمره سبع سنوات كاملة في البحث في أثر وجود فيديو في دورة المياه على سلوك الطفل، مع تطبيق ذلك بوجه خاص على شعوب أفريقيا جنوبي الصحراء.

كذلك وصل الأمر بهيئة الأمم المتحدة إلى حد أن اعتبرت من مهامها التي لا تقل خطورة عن مهمة حفظ السلام في العالم، مهمة نشر استخدام الفيديو في الدول الأقل حظا والأكثر حرمانا منه. فأنشئت منظمة بعد أخرى لهذه الغرض، تتبع هيئة الأمم مباشرة، منظمة لتقديم القروض الميسرة لشراء الفيديو، وأخرى لحل مشكلات ميزان المدفوعات الناشئة عن الاقتراض لشراء الفيديو، وثالثة للعمل على إزالة الحواجز الجمركية القائمة في وجه الجهاز، ورابعة لتدريب بلاد العالم الثالث على طريقة تشغيله، بالنظر إلى أن تركيبة خلايا المخ، لدى الجزء الأكبر من شعوب العالم الثالث تتعارض مع الطريقة المثلى لاستخدام الجهاز. وعلى كل حال فقد دأبت هيئة الأمم المتحدة، بغرض نشر المعرفة بين الجميع، على نشر جداول سنوية وشهرية تتضمن مقارنة الدول بعضها ببعض في عدد أجهزة الفيديو المستخدمة لكل ألف من السكان. كما اهتمت بالأمر المنظمة السويدية التي تمنح جائزة نوبل كل عام، فمنحت الجائزة في احدى السنوات لاقتصادي هولندي قامت شهرته على تأليف كتاب في التنمية بدأه بتعريف التنمية التعريف المألوف وهو زيادة عدد ساعات التعرض لجهاز الفيديو، ولكنه أثبت بعد ذلك باستخدام أساليب رياضية متقدمة للغاية أن العامل الأساسي في تنمية العالم الثالث هو عدد المشتغلين بالتدريب على استخدام الجهاز.

* * *

منطقة واحدة من مناطق العالم الثالث بدت عصيّة أكثر من غيرها على استخدام هذا الجهاز. وزاد خطورة المشكلة أن هذه المنطقة كانت تحتوى على آبار يمكن أن تنتج كميات هائلة من البترول اللازم لإنتاج جهاز الفيديو نفسه. ها هى ذى منطقة صحراوية جرداء لا يسكنها إلا بعض البدو ومشايخ العرب، لا يعرفون الفيديو ولم يسمعوا عنه، يقضون امسياتهم بدلا من ذلك فى الجلوس فى حلقة حول جذوة نار يشعلونها للتدفئة أو الاضاءة، ويعشقون المناظرة ومقارعة الحجة بالحجة، ويعتبرون الفصاحة فى الكلام والحكمة فى القول زينة الرجال وحلية النساء، ولا يجلب فى نظرهم العار مثل ما تجلبه البلاهة والعجز عن الافصاح عما يدور فى النفس. لهذا السبب كان تعلمهم مشاهدة الفيديو والاستمتاع به أمرا بالغ الصعوبة، لم يصادف منتجو الجهاز مثله فى أى منطقة أخرى من مناطق العالم. لهذا ركز منتجو الجهاز على تدريب زعماء المشايخ وأصحاب النفوذ منهم مهما كلفهم ذلك من جهد على استخدامه والاستمتاع به. فلما تم لهم ذلك تركوهم وشأنهم، وأصبح هؤلاء المشايخ يقضون ساعات يومهم فى مشاهدة الفيديو حتى الساعات الأولى من الصباح، ثم النوم حتى الظهيرة ثم شرب الشاى استعدادا لفيديو المساء. وعلى الرغم من أن الاستمتاع الحقيقى بالفيديو قد اقتصر على هؤلاء الكبار وأصحاب النفوذ، إذ أنهم هم الذين تعرضوا للتدريب الطويل، فإن بقية البدو سرعان ما ساروا سيرتهم، لمجرد التقليد وحبا فى الظهور بمظهر المشايخ والزعماء.

ترتب على ذلك أن أصبح الجميع ينامون حتى الظهيرة، ومن ثم احتاج منتجو الفيديو إلى استجلاب أشخاص من الخارج للقيام بمهمة

استخراج البترول وضخه. ولم يكن هذا سهلا، إذ ليس من السهل أن تغرى أحدا بالقدوم إلى هذه البلاد التى تبلغ فيها الحرارة فى معظم شهور السنة حرارة جهنم الحمراء، مهما جلب إليها من أجهزة التكييف والتبريد. لم يكن هناك إلا حل واحد : هو، مرة أخرى، ذلك الجهاز السحرى الذى يحل كل المشاكل. فقد أعلن فى الجرائد أن من يأتى إلى الصحراء للعمل، ويصبر على ذلك عاما بأكمله، يمكنه العودة إلى بلده بعد ذلك ومعه جهاز للفيديو وثلاثة أشرطة. وقد نجح الاعلان وتدفق إلى الصحراء مئات الآلاف من البشر من مختلف البلدان الآسيوية والأفريقية.

* * *

انتشر الفيديو فى العالم بأسره فيما عدا منطقة واحدة : هى منطقة الاتحاد السوفييتى واوربا الشرقية، التى ذهبت إلى حد إصدار قانون يمنع منعا باتا إنتاج أية كمية من جهاز الفيديو، فى أية صورة من الصور، أو استيراده. كان منطق هذه البلاد غريبا حقا. إن حكام هذه البلاد لم يقولوا أن الفيديو يسبب لوثة أو وباء عقليا، بل أنهم لم يتكلموا عن هذا الوباء أصلا. كل ما قالوه واحتجوا عليه هو أنه فى الولايات المتحدة، يوجد أشخاص يمتلكون عشرة أجهزة للفيديو أو أكثر وكثيرون لا يملكون أكثر من جهاز فيديو واحد. وأعلنوا أن هدفهم ليس هو مقاومة الفيديو بل على العكس أن يصلوا خلال عشرين أو ثلاثين عاما إلى أن ينتجوا كمية من الفيديو تكفى لأن يكون لكل شخص ما لا يقل عن خمسين جهازا، على أن توزع الأجهزة بالمساواة التامة. وقالوا أن هذا يستلزم أن يمتنعوا الآن، ليس فقط عن استيراد الفيديو بل وعن إنتاجه أيضا، وأن يركزوا بدلا من ذلك

على صناعة الآلات المنتجة للآلات المنتجة للفيديو.

كان هذا المنطق، وإن كان مقنعا من الناحية الحسابية المحضة، فاسدا تماما من كل النواحي الأخرى، فهو يتجاهل تماما موضوع العلاقة بين جهاز الفيديو والمرض العقلى. فإذا كانت هذه العلاقة صحيحة فإن الهدف التى أعلنته هذه الحكومة يصبح تافها للغاية، بل وغير جدير على الاطلاق بالسعى من أجله. ذلك إنه إذا كان التعرض للجهاز هو سبب المرض العقلى فإن الشخص الذى لا يملك إلا جهازا واحدا هو بلاشك أسعد حظا من الذى يملك عشرة. فما هو وجه الحماس إذن لاعطاء كل شخص خمسين جهازا ولو كان ذلك بمراعاة مبدأ المساواة المطلقة؟

على الرغم من سخافة هذا المنطق فقد سبب صداعا شديدا لمنتجى الفيديو فى الولايات المتحدة، إذ أنه كان سببا مستمرا لاثارة الشغب بين العمال المنتجين للفيديو فى داخل الولايات المتحدة نفسها الذين لا يكفون عن المطالبة بالحصول على عدد أكبر من الأجهزة. كانت الوسيلة التى اتبعها منتجو الفيديو الأمريكية هو اجبار حكومات هذه الدول على الدخول فى سباق للتسليح لابد أن ينتهى، آجلا أو عاجلا، بالتسليم. وفى نفس الوقت كان منتجو الفيديو يهربون من وقت لآخر جهازا للفيديو فى بعض حقائب المسافرين إلى الاتحاد السوفييتى وأوربا الشرقية نجح فى ايقاع كثير من الشباب فى براثنه. انتهى الأمر فجأة بأن أعلن حكام أوربا الشرقية أنه قد تبين لهم للأسف استحالة الوصول إلى هدف إنتاج خمسين جهازا للفيديو للشخص الواحد فى المستقبل المنظور، ومن ثم فإنهم قد عقدوا صفقة هائلة مع الولايات المتحدة تتضمن استيراد البلايين من أجهزة الفيديو مع شرائطها

استجابة لرغبة الشباب فى تحقيق حياة أفضل.

* * *

فى سنة ١٩٦٨ حدث حادث خطير أطار النوم من عيون منتجى الفيديو الأمريكيين والأوربيين معا. فقد نجح بعض الأطباء الأمريكيين فى أن يهرّبوا إلى فرنسا نسخة من المحاضرة التى أثبت فيها الاستاذ الأمريكى ذو الأصل الصينى العلاقة بين جهاز الفيديو والوباء العقلى. حصل على نص المحاضرة بعض طلبة جامعة باريس فجن جنونهم، وأعلنوا الاضراب العام، وأشعلوا الحرائق فى شوارع باريس وأقاموا المتاريس. وسرعان ما انتشر الاضراب من جامعة إلى أخرى، ليس فقط فى فرنسا بل وفى بقية دول أوربا الغربية، بل امتد إلى بعض الجامعات الأمريكية نفسها حيث شعر الشباب هناك بالخزى عندما علموا أن المحاضرة كانت معروفة لدى الشركات الامريكية منذ البداية وتكتموا أمرها.

بدأ هؤلاء الطلبة الثوار يعيدون النظر فى طريقة حياتهم بأكملها، على ضوء ما جاء بالمحاضرة. فاكتشفوا أشياء ليس من السهل تصديقها. اكتشفوا مثلا أن كثيرا من آبائهم كانوا يعلمون بمضمون المحاضرة وآثروا الصمت خوفا مما وصلهم من تهديدات بفصلهم من أعمالهم لو أخبروا أحدا بمحتواها. بل واكتشفوا أن المقررات التى كانت تدرس لهم فى المدارس والجامعات كانت توضع كلمة بكلمة فى شركات إنتاج الفيديو وترد إلى وزارات التعليم جاهزة وبصفة دورية عاما بعد عام، وأن هذه المقررات كانت تحتوى على دعاية مستترة للفيديو لم يكونوا قد لاحظوها من قبل.

المهم أن جزءا كبيرا من الطلاب أعلنوا عن نيتهم فى الامتناع عن التوظف بعد أن يتخرجوا من الجامعة، سواء فى القطاع الخاص أو العام، حتى لا تستخدم الوظيفة فى تهديدهم بالكف عن الدعاية ضد الفيديو. كما طالبوا بتشكيل لجنة من الطلبة تراجع المقررات الدراسية بنفسها كل عام وتشطب منها كل إشارة واضحة أو مستترة للجهاز. لم يكن من السهل على منتجى الفيديو التعامل مع هذه الحركة، ولكنهم مع ذلك لم يعدموا وسيلة، خاصة وأنهم تسلحوا بالصبر، وقرروا أن الاستعجال فى معالجة هذه الأمور خطأ وأن الزمن، إذا ما أحسن المرء التصرف، كفيل بعلاج الأمر. فبعد سنوات قليلة من بداية حركات الشباب المناهض للفيديو انتشر فى العالم الغربى ما يمكن تسميته «بالتضخم العظيم»، قياسا على ما حدث فى الثلاثينات من «كساد عظيم». فارتفعت الأسعار ارتفاعا شديدا ومفاجئا واستمر الارتفاع يتزايد سنة بعد أخرى. لم يكن أحد يتصور أن يكون هذا التضخم فعالا لهذه الدرجة فى القضاء على حركة الشباب الغاضب، فقد وجد هذا الشباب نفسه فجأة مطالبا بالعمل ساعات طويلة لمجرد كسب القوت أو دفع إيجار السكن، ولم يعد آباؤهم بسبب التضخم فى مركز يسمح لهم بتلبية طلبات أولادهم المتمردين الرافضين للتوظف.. لقد بدا الأمر مثيرا للشفقة إذ كنت ترى هؤلاء الشباب الذين لم يكن لهم فى نهاية الستينات ومطلع السبعينات إلا الكلام عن مساوىء الفيديو والتطلع إلى عالم خال منه، وقد تحولوا تدريجيا منذ منتصف السبعينات إلى موظفين محترمين لا يجدون هم أنفسهم أى غضاضة فى اقتناء جهاز أو جهازين منه. وعندما فكر أحد مقدمى البرامج التليفزيونية منذ سنتين فى أن يقدم

برنامجا يصور ما حدث من تطورات لقادة الشباب، بعد انقضاء عشرين عاما على حركتهم، كان منظر هؤلاء القادة القدامى، عندما ظهروا على شاشة التليفزيون مثيرا للضحك والرثاء حقا : ففضلا عما أصابهم من سمنة مفرطة فى كافة أجزاء الجسم، كان معظم حديثهم عن آخر الأفلام التى شاهدوها عن طريق الفيديو. ولا يعرف أحد حتى الآن ما إذا كان هذا التضخم العظيم قد حدث من تلقاء نفسه بسبب تفاعل القوى الاقتصادية العمياء أم بتدبير متعمد من أصحاب شركات الفيديو بهدف القضاء على حركة الشباب.

* * *

كان من الطبيعى أن تتسرب بضع نسخ من المحاضرة إلى بعض دول العالم الثالث . ولكن رد الفعل، كما لابد أن نتوقع، كان مختلفا إلى حد كبير عنه فى أوربا .

لقد تحرك الشباب فى العالم الثالث أيضا ضد الفيديو ولكن الدافع كان مختلفا بعض الشىء. كان هناك الكثيرون من شباب العالم الثالث الذين يتلهفون على اقتناء جهاز الفيديو دون أن تكون لديهم القدرة على شرائه. ومن ثم فإن العداء الذى أبداه كثيرون منهم ضد الفيديو لم يكن فى كثير من الأحيان إلاّ تعبيرا عن غيرتهم ممن استطاعوا شراءه، أو تبريرا يقدمونه لأنفسهم لعجزهم عن الشراء.

كانت طريقة التعامل مع هؤلاء بسيطة وواضحة كالشمس: إذ يكفى أن تعطى جهازا من أجهزة الفيديو أو جهازين للشخص الساخط بسبب

حرمانه منه فإذا به يتحول إلى صديق اليف. ولكن بالنظر إلى أن هذا الحل، على سهولته ووضوحه، كان حلا مكلفا للغاية، إذا تعلق الأمر بالألوف ناهيك عن الملايين من الساخطين، فإن منتجى الفيديو لجأوا إلى فكرة أخرى جهنمية ولكنها بالغة الفعالية. لقد عقدوا صفقة مع بعض الأشخاص الساخطين ممن يتسمون بذكاء أعلى بقليل من المتوسط وكثير من الفصاحة والجاذبية الشخصية - مؤداها أن يعطوا لكل منهم جهازا للفيديو كل شهر فى مقابل أن يلقوا أحاديث يومية فى التليفزيون تدور كلها حول الأضرار الشنيعة الى تعود على المرء من استخدام الفيديو أثناء حياته، والمنافع المؤكدة التى تعود عليه من استخدامه بعد الموت، وأن هناك علاقة عكسية بين الاستمتاع بالفيديو قبل الموت وبعده، فكلما زاد الاستمتاع به قبل الموت قل الاستمتاع به بعد الموت، والعكس بالعكس. كانت الحيلة إذن مدارها توفير النفقات، إذ لم يعد من الضرورى توزيع أجهزة الفيديو فورا على الجميع بل تأجيل توزيعها إلى ما بعد وفاتهم جميعا، فضلا عما كانت تؤدى إليه من امتصاص غضب العاجزين عن شراء الجهاز. وعلى الرغم من الانخفاض الواضح فى مستوى هذه الأحاديث وعلى الرغم مما ظل يتردد من اشاعات لا نهاية لها من أن أصحاب هذه الأحاديث يقضون كل مساء، هم أنفسهم، فى مشاهدة أفلام الفيديو، على الرغم من ذلك فإن هذه الأحاديث حققت نجاحا منقطع النظير، وطالب الناس باذاعتها مرتين فى اليوم بدلا من مرة واحدة. بل بلغ الأمر أن بعض حائزى الفيديو سجلوا هذه الأحاديث على شرائط وباعوها لغيرهم من يمتلكون الجهاز.

* * *

على أن بعض المعترضين على الفيديو في العالم الثالث لم يكن سبب اعتراضهم مجرد عجزهم عن شرائه، بل كان يدفعهم إلى ذلك شعور نبيل للغاية بالاعتزاز بالنفس والكرامة الشخصية جعلهم يمتعضون أشد الامتعاض كلما رأوا المنظر المهين لأبناء عشيرتهم جالسين فاغري الأفواه أمام هذا الجهاز. بعض هؤلاء آثر الابتعاد والنجاة بنفسه دون احتجاج أو احداث أي ضجيج، ولكن بعضهم لم يستطع الصمت. وإذ لم يكن من المجدى مع هؤلاء اغراؤهم بجهاز أو جهازين، فقد اتبعت معهم أساليب أكثر وحشية. من هؤلاء واحد من مشايخ البدو الكبار كان يعبرّ من حين لآخر عن حنينه للأيام الخوالى التى كان يتجمع فيها البدو حول جذوة نار، يتبادلون الحديث ويتلون الأشعار. ثم حدث فى أحد الأيام فى منتصف السبعينات أن جن جنونه عندما طلب منه أن يفرش عباءته على الأرض ليوضع عليها جهاز الفيديو، إذ رفض بعنف، واعتبر الطلب امتهانا شديدا لكرامته وقام وترك المجلس غاضبا. فإذا بأحد اقربائه من الشباب يطعنه فى اليوم التالى بخنجر مسموم قضى به نحبه. قيل وقتها أن هذا الشاب كان مختل العقل وأن الحادثة لا علاقة لها البتة بحادثة العباءة. ولكن بعض العارفين تحدثوا هامسين بأن الشاب القاتل كان على علاقة جنسية شاذة بشاب أمريكى ثرى يمتلك أبوه أحد مصانع الفيديو فى شيكاغو.

* * *

كل هذا كان مقدورا عليه، ثم حدث شيء رهيب قلب الدنيا كلها رأسا على عقب. إذ توصلت شركة يابانية، وشركة أخرى ألمانية، فى نفس الوقت بالضبط، ولكن دون أن تكون هناك أدنى علاقة بينهما، إلى اختراع جهاز لم

تعرف الإنسانية مثله من قبل. نعم هو جهاز للفيديو، ولكنه كان فريدا من نوعه بحيث كانت أجهزة الفيديو السابقة عليه، إذا رؤيت بجواره، تبدو مضحكة للغاية. كان شيئا لا يزيد حجمه على حجم الكف، خفيفا كالريشة، على أحد جانبيه شاشة صغيرة كشاشة التليفزيون، وعلي الجانب الآخر عدد كبير جدا من الازرار الصغيرة. أما الشريط الذى يوضع فيه فهو عبارة عن ورقة أصغر قليلا من ورقة الكوتشينة، ويمكن أن يحتوى على ما لا يقل عن عشرين ساعة من الأفلام الملونة والناطقة. أما هذا العدد اللانهائى من الازرار، فبعضها يقدم لك ترجمة مطبوعة على الصورة للكلام المصاحب للفيلم، بأثنى عشرة لغة مختلفة تختار منها ما تشاء، وبعضها يقوم بمهمة الكاميرا، فتستطيع أن تستخدم نفس الجهاز فى التصوير وتسجيل الصوت. وبعضها يسمح لك بنقل الصورة إلى مساحة أكبر، على الحائط مثلا أو على شاشة كبيرة معلقة، كل هذا بالإضافة بالطبع إلى جميع الوظائف التقليدية التى كان يقوم بها جهاز الفيديو القديم، كتسجيل الأفلام فى غيابك فى أى ساعة تشاء.. إلخ.

نزل هذا الخبر على أصحاب شركات الفيديو الأمريكية كالصاعقة. فإنتاج هذا الجهاز من شركة يابانية أو ألمانية لا يعنى إلا شيئا واحدا: الافلاس التام وخراب بيوت كل من له علاقة مباشرة أو غير مباشرة بإنتاج الفيديو أو الأشرطة فى الولايات المتحدة. كان واضحا كالشمس أن هذا الأمر يجب وقفه فورا ودون تأخير. فكّر المنتجون الأمريكيون فى تمويل حملة إعلان هائلة تحاول اقناع الناس بوجود علاقة بين الفيديو الصغير ومرض الايدز، ولكنهم استبعدوا أن تنجح مثل هذه الحملة فضلا عن تكاليفها

الباهظة. لم تكن هناك إلا وسيلة واحدة: إرسال حملة عسكرية لاحتلال آبار البترول التى يعتمد عليها المنتجون اليابانيون والألمان اعتمادا تاما، ومن ثم اجبار هؤلاء على التوقف عن إنتاج الفيديو الصغير. كان ترتيب ذلك من الناحية العسكرية سهلا للغاية، وإنما كانت المشكلة فى آثاره السياسية والاجتماعية. فقد قدر أن عدد القتلى والمشردين لن يقل عن مليون ونصف من البشر، معظمهم من الكويتيين والمصريين والهنود بالإضافة إلى بعض النساء من فقراء الفلبين وسريلانكا وبنجلاديش، فضلا عن الاذلال الشديد الذى سوف يتعرض له شيوخ البدو وما سوف يشعرون به من مرارة عندما يتكشف لهم الأمر بما ينطوى عليه من خيانة ونكران للجميل. ولكن الأمر لم يكن يحتمل التأخير، وسوف ينظر فى تعويض الخسائر فيما بعد. بل إن بعض مؤيدى الحملة العسكرية ذهبوا إلى القول بأن الآلام التى سوف تصيب أثرياء الكويتيين هى آلام محدودة ومؤقتة، إذ لن يزيد الأمر عن أنهم سوف يضطرون إلى مشاهدة الفيديو فى لندن أو جنيف أو سان فرانسيسكو بدلا من مشاهدته فى الكويت، وأن مشاهدة الفيديو داخل الوطن لا تختلف كثيرا عن مشاهدته خارج الوطن.

* * *

كان المنظر الناتج عن الغزو واحتلال آبار البترول مذهلا فى بشاعته وغرابته. رجال ونساء وأطفال يجرون بأقصى سرعة فى الصحراء تحت شمس اغسطس الحارقة، وعلى ظهر كل منهم جهاز ثقيل للفيديو يزيد الحركة صعوبة ويزيد بسببه توغل الأقدام فى الرمال. أما أصحاب السيارات فقد شقوا مقاعد سياراتهم بسرعة جنونية وأخرجوا ما فيها من قش ووضعوا فى

كل منها جهازا للفيديو ثم أعادوا وضع القش وأعادوا حياكة المقاعد حتى تبدو طبيعية، ثم جلسوا عليها رغم ما كان يجلبه لهم الجلوس على هذه الأجهزة الصلبة من ألم. بل لقد عمدت بعض السيدات إلى خلع ملابسهن الداخلية وغطت بها أجهزة الفيديو حتى ينخدع بها الجنود الغزاة فلا يخمنوا وجود مثل هذه الأجهزة تحتها. كان الجنود الغزاة بالفعل يبحثون في المقام الأول عن أجهزة الفيديو والشرائط، وكثيرا ما نسوا الاستيلاء على زجاجات الماء، حتى في مثل هذه الحرارة العالية، من أجل نقل أجهزة الفيديو التي استولوا عليها إلى مكان أمين.

طوال طريق الهرب كان جهاز الفيديو هو أداة التبادل في المعاملات، والموضوع الوحيد للحديث، والسبب الوحيد المثير للنزاع. على أن أكبر الحوادث اثارة للأسى كان ذلك الحادث الذي وقع لسيدة مصرية في نحو الخامسة والأربعين من عمرها، حاصلة على الدكتوراه في علم الاجتماع من جامعة لندن، كانت في الكويت أثناء الغزو. عندما هرع زوجها وأولادها إلى السيارة للهرب، رفضت رفضا باتا أن تعود معهم إلى مصر، وقالت لهم أنها انفقت نصف عمرها بالضبط في الكويت تجمع أجهزة الفيديو ولا يمكن لها أن تحملها كلها معها كما أنه لا يمكنها أن تتركها في الكويت وتعود إلى مصر، إذ أن هذا يجعل حياتها كلها تبدو كنكتة شيطانية قذرة. قالت أنها باقية في شقتها إلى جانب أجهزة الفيديو وأنها على استعداد لدفع حياتها دفاعا عنها. وكان هذا هو ما حدث.

* * *

بعد عشر سنوات بالضبط من غزو الكويت توصل منتجو الفيديو

الأمريكيون إلى سر إنتاج جهاز الفيديو الصغير فانتجوه ، وامتلأ العالم كله بالدعاية له تذكرك بالحملة التى اطلقت فى منتصف الأربعينات لترويج مشروب الكوكاكولا. ولم تمض بضع سنوات حتى انتشر الجهاز الجديد بنفس درجة انتشار الكوكاكولا ، فأصبحت تجده فى يد العامل الأوربى والأمريكى والروسى، كما تجده فى يد الفلاح المصرى البسيط وهو راكب حماره، وفى أيدى الرعاة فى شرق أفريقيا. أصبح هو محور الحياة وقرة العين، هو الغاية والوسيلة، هو مؤشر التنمية ومقياس النجاح، تقوم من أجله الحروب وتقتل المرأة من أجله زوجها أو حماتها. وأصبح من المناظر المألوفة فى كل مكان منظر الناس وهم يحملونه أثناء سيرهم فى الطريق، وقد مد به كل منهم يده اليمنى لتحسن رؤيته بينما يراقب بالعين اليسرى بقية الطريق، ولا يبادل بعضهم البعض الحديث، وإنما تسمع من حين لآخر قهقهة من اليمين يتلوها صياح تشجيع لأحد لاعبى الكرة من اليسار.

* * *

أثناء ذلك نشرت بعض الصحف أن السفير الإسرائيلى فى الرياض تقدم بطلب مقابلة الوزير، ليس بوصفه وزيرا فى دولة عربية ثرية، ولكن باعتبار دولته هى حامية حمى التراث العربى والثقافة العربية، وأن الموضوع باختصار أن شركة اسرائيلية عكفت منذ ما يزيد على خمسة عشر عاما على حصر التراث العربى بأكمله، من شعر ونثر وفلسفة وحكمة وتاريخ... إلخ، وفى مقدمته بالطبع علوم القرآن الكريم والحديث، وانها توصلت إلى طريقة لفرز هذه الأعمال والتمييز فيما بينها بين ما يصلح وما لا يصلح للتسجيل على شرائط الفيديو الصغير، مع إدخال تعديلات طفيفة للغاية

على بعض هذه الأعمال المأثورة بما لا يؤثر على محتواها أو ينقص من رهبتها الدينية والتاريخية ، بل فقط لجعلها ملائمة للتسجيل على هذه الأشرطة، فتختصر مثلا المعلقات المطولة، وتوضع فواصل موسيقية ملائمة بين الأحاديث النبوية، وتستخدم الصورة لإضفاء بعض الجاذبية عليها. وشرح له بلهجة معتذرة أنه من أجل أن يصبح المشروع اقتصاديا فقد يكون من الضروري إدخال بعض الاعلانات القليلة جدا في كل شريط، ولكن هذا يهون في سبيل النفع المحقق من نشر هذه الأعمال بين أوساط المتعلمين وغير المتعلمين، بينما هي الآن في متناول حفنة ضئيلة من المثقفين، كما أن من الممكن أن نحاول أن نقنع أصحاب الاعلانات بتجنب الصور الجنسية الفاضحة.

* * *

كان من الطبيعي أن يصاحب انتشار الفيديو الصغير، انتشار الوباء العقلي الذي كان قائما في ظل الفيديو القديم، وأن يكون انتشار الوباء الآن بمعدل أكبر، حتى أنه لم يعد هناك في أية دولة من الدول إلا عدد يعد على الأصابع ممن لم يصابوا به. وقد يندهش البعض أنه على الرغم من ذلك لم يطلق على الوباء أي اسم، ولكن الحقيقة أن هذا يجب ألا يدهش احدا ، فنحن نطلق اسما على شيء لتمييزه عن غيره، فإذا انعدم التمييز، مع اصابة الجميع بالمرض، لا يصبح هناك وجه لإطلاق الأسماء. ربما كانت المحاولة الوحيدة التي بذلت في هذا الصدد هي تلك التي قام بها الرئيس الأمريكي بوش، وهو يشرح أغراض الحملة الحربية على الكويت، إذ قال إنه يقوم بهذه الحملة دفاعا عن «النمط الأمريكي في الحياة»، ولعل هذا هو أقرب ما يمكن أن نصل إليه من أسماء لما حدث.

(٣)

المثقف العربى وأزمة الخليج

قبل أن أتعرض لموقف المثقفين العرب من أزمة الخليج أريد أولا أن أذكّر القراء بما كان عليه حال المثقفين قبل أزمة الخليج مباشرة، أى فى أول أغسطس ١٩٩٠، وكيف كان تناول المثقفين للوضع العربى آنذاك. ذلك لأنى لاحظت أن ذاكراتنا ضعيفة جدا، فقد كدنا أن ننسى مثلا أننا، منذ شهور قليلة كنا نتكلم عن صدام حسين وكأنه أصدق الأصدقاء، فصرنا نتكلم عنه وكأنه هو الشيطان بعينه. عكس ذلك حدث لعلاقتنا بالقذافى وحافظ الأسد، كان كل منهما الشيطان بعينه، فأصبحنا أصدق الأصدقاء. من المفيد إذن أن نحاول أن نتذكر ما كان عليه الحال فى أول اغسطس الماضى، وموقف المثقفين منه.

فى ذلك الوقت كان هناك موقف لكل بلد عربى، يختلف بعض الشىء عن موقف البلاد العربية الأخرى، وإن كانت كلها تشترك فى شىء

واحد أساسي، وهو التبعية للولايات المتحدة الأمريكية. سوف أستعرض بسرعة المواقف الأساسية الخمسة التي كانت سائدة بين الدول العربية قبل الغزو، لأبين الأسباب التي أبني عليها اعتقادي بأنها كلها كانت دولا تابعة للولايات المتحدة، ثم أشير إلى موقف المثقفين العرب من كل منها قبل الغزو، ثم أتطرق لما حدث لهذا وذاك بعد الغزو. وسوف استخدم في العرض الطريقة المتبعة في تقديم المسرحيات، وهي تقديم وصف موجز لشخصيات المسرحية. ولكني سأقتصر بالطبع على القائمين بدور البطولة، ولن أتعرض للشخصيات الثانوية. الشخصيات الأساسية كما كانت في ١ / ٨، هي الرئيس صدام حسين، الأمير جابر الأحمد، الملك فهد، الرئيس مبارك، والملك حسين.

ولنبدأ بالرئيس صدام حسين : زعيم عراقي في نحو الخمسين من عمره. تولى حكم العراق بوصفه المسئول الأول أو الثاني، طوال الـ ٢٢ سنة الماضية، أي منذ ثورة ١٩٦٨. أي أنه بدأ بتحمل المسئولية في العراق بعد نكسة العرب في ١٩٦٧ مباشرة، ومع ذلك، وعلى الرغم من كل مزاعمه البطولية، وبأنه حامي حمى العروبة.. إلخ، فإنه يلاحظ أن الوضع العربي لم يتقدم خلال هذه الـ ٢٢ عاما قيد أنمله، بل إن الوضع العربي، من كل زاوية تقريبا، أسوأ اليوم مما كان عليه عندما تولى صدام حسين المسئولية، الأولى أو الثانية، في ١٩٦٨. يلاحظ أيضا أنه باستثناء بعض الأعمال العمرانية، وزيادة كمية الأسلحة التي يحوزها الجيش العراقي زيادة هائلة، يمكن أن نعتبر أن حالة غالبية الشعب العراقي لم تتحسن كثيرا، إن لم تكن اسوأ، عما كانت عليه من ٢٢ عاما، اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا، خاصة إذا

أخذنا فى الاعتبار الخراب المادى الذى أحدثته حرب العراق وإيران، وديون العراق الخارجية التى وصلت الآن إلى مائة ألف مليون دولار (١٠٠ بليون) أى نحو ضعف الديون المصرية، وما فعلته الحكومة العراقية بالأكراد من ناحية والشيعة من ناحية أخرى، والانهيار المعنوى الذى لحق ببقية العراقيين بسبب حكم قائم على عبادة الفرد لمدة ٢٢ عاما.

هناك أيضا أسباب تدفعنى إلى الاعتقاد بأن علاقة الرئيس صدام حسين بكل من الأمريكيين والاسرائيليين علاقة مشبوهة إلى حد كبير. فحرب العراق وإيران، التى بدأها صدام حسين، ضيعت ٨ سنوات على الأقل من عمر العرب والايرانيين فى نفس الوقت، بينما استفاد منها الامريكيون والاسرائيليون، ببيع الأسلحة من ناحية، والاستيلاء على كمية كبيرة من أموال النفط، وتبديد طاقة ثورة إيران من ناحية أخرى، وهى ثورة كان لديها، فيما يبدو لى، امكانية النجاح، وصرف نظر العرب عن إسرائيل لمدة ثمانى سنوات، بزعم وجود خطر اختلقه صدام اختلاقا، هو الخطر الفارسى، وهو «خطر»، تحول منذ أسابيع قليلة، ويا للغرابة، إلى صداقة حميمة مع النظام العراقى، تشمل تموين العراق بالسلع الغذائية التى يتظاهر الغرب بالرغبة فى منعها عنه.

الشخصية الثانية

هى شخصية الشيخ جابر الأحمد أمير الكويت :

زعيم عائلة تترأس الكويت منذ أكثر من مائة عام. يبلغ حجم شعبه

الحقيقى نحو نصف مليون أو أقل قليلا أو أكثر قليلا، وبقية السكان من جنسيات مختلفة ليس لهم أي ولاء لدولة الكويت، كما أن دولة الكويت لا تشعر بأي ولاء تجاههم. لدينا إذن نحو مليون شخص من مواطنى الدرجة الثانية أو الثالثة، يتقاضون حقا مرتبات فى غاية الارتفاع إذا قورنت بما كانوا يتقاضونه فى بلادهم، ولكنهم محرومون من كل ما عدا ذلك من حقوق، سواء تعلق الأمر بملكية أرض أو منزل أو حق انتخاب أو ترشيح مهما طالت مدة إقامتهم بالكويت. وإذا حدث ودخل أحدهم فى خصومة مع كويتى، فالحكومة والشرطة ينحازان فى أغلب الأحوال إلى جانب الكويتى بالحق أو الباطل. ويقوم هؤلاء المليون نسمة من غير الكويتيين بمعظم الأعمال، المنتجة وغير المنتجة، من ضخ البترول من الأرض، إلى إدارة الاقتصاد، إلى كنس الطرقات إلى بيع المرطبات. أما الكويتيون فمتخصصون فى حق الملكية.

علاقة حكومة الشيخ جابر الأحمد بأمريكا وإسرائيل كانت بدورها علاقة مشبوهة لا لأن الحكومة الكويتية تحب أمريكا أو اسرائيل محبة خاصة بل الأرجح أن العكس هو الصحيح، ولكن لأن حكومة من هذا النوع، تمثل مصالح أشخاص معظمهم لا ينتجون أى شىء من أى نوع، لا سلعة ولا خدمة، ومع ذلك يستحوذون على الجزء الأكبر من الثروة، وهم فى نفس الوقت أقلية فى بلادهم، حكومة من هذا النوع لابد لها من يحميها. والذى كان يتولى حمايتها هو بالطبع الولايات المتحدة، والولايات المتحدة، كما هو معروف للكافة، لها علاقة حميمة بإسرائيل، ومن ثم فالعلاقة بين حكومة الكويت والولايات المتحدة لابد أن تكون مشبوهة، وموقفها من إسرائيل

لابد أن يكون محكوما بهذه العلاقة المشبوهة.

الشخصية الثالثة

هى شخصية الملك فهد ملك السعودية:

والسعودية هى من أكثر الدول الأطراف فى الأزمة أهمية، إن لم تكن فى الواقع أهمها على الاطلاق، بالنظر إلى ثرائها الشديد من ناحية، وضخامة احتياطيها من النفط من ناحية أخرى. ولكن الملك فهد لا تتناسب أهميته مع أهمية الدولة التى يرأسها. لا نستطيع أن نصف المجتمع السعودى بما وصفنا به المجتمع الكويتى، فالسعوديون بعكس الكويتيين أغلبية فى بلادهم، وكثيرون منهم يقومون بنشاط إنتاجى. ومع ذلك فرض التاريخ السياسى لهذا الجزء من الجزيرة العربية على سكانه أسرة حاكمة تتسم بصفات نفسية جعلت تبعيتها للولايات المتحدة سمة ثابتة، يتكرر ظهورها فى ملك بعد آخر، لم يشذ منهم إلا الملك فيصل رحمه الله، ومن ثم جرى التخلص منه بسرعة.

الشخصية الرابعة هى شخصية الرئيس مبارك :

وتبعيته للولايات المتحدة تنبع من اعتبارات مختلفة تماما عن الاعتبارات التى دفعت الكويت أو السعودية إلى الوقوع فى التبعية. فالمصريون ليسوا أقلية فى بلادهم، والجزء الأكبر من المصريين، وإن كانوا منخفضى الإنتاجية، فهم على الأقل يشتغلون بأعمال منتجة. والرئيس

مبارك رجل مستقيم وجاد. مشكلة الرئيس مبارك أنه يجلس على رأس صفوة من علية القوم، تصرّف الأمور أحيانا، وتقدم له النصيحة أحيانا، بما يتفق دائما مع مصلحة الولايات المتحدة وإسرائيل، لأن هذا هو ما يتفق مع مصالحها الخاصة. ومع ذلك فالرئيس مبارك يصرّ دائما، على أن سياسته ليست تابعة للولايات المتحدة، ولكن الحقيقة فى رأيى هى عكس ذلك بالضبط.

الشخصية الأخيرة هى شخصية الملك حسين :

وهو شخصية غريبة تختلف عن الأربعة المتقدمين كلهم. فلنلاحظ أولا أن مدة حكمه تفوق بكثير مدة حكم أى حاكم عربى حالى آخر. هو جالس على عرش الأردن منذ أكثر من ثلث قرن، عاصر خلاله عبد الناصر والسادات ومبارك، وعاصر من عهود العراق، العهد الملكى والشيوعى والبعثى بكافة أنواعه، ومن ملوك السعودية عاصر سعود وفيصل وخالد وفهد... وهكذا، حتى اشتهر الملك حسين بالحنكة السياسية والالمعية وبالقدرة على المحافظة على عرشه فى أشد الظروف صعوبة.

على الرغم من كل ذلك، بل وربما بسبب ذلك، لا يتردد المرء فى وصف النظام الملكى فى الأردن بالتبعية، شأنه شأن غيره من النظم العربية، مع فارق واضح. فإذا كانت أى محاولة للتمرد على التبعية للغرب فى العراق، لابد أن تؤدى إلى عزل الزعيم البطل عن الحكم، وأى محاولة للتمرد على التبعية فى الكويت أو السعودية لابد أن تؤدى إلى تغيير الأسرة

الحاكمة، وفي مصر إلى تغيير النظام، فإن أي محاولة للتمرد على التبعية في الأردن لابد أن تؤدي إلى زوال الدولة نفسها.

فالدولة الأردنية خلقت أساسا لاهداف بريطانية، ثم استمرت ودعمت لأهداف إسرائيلية وأمريكية. وفيما عدا هذا فالدولة ليس لها أي مقومات الوجود المستقل، اقتصاديا أو تاريخيا أو جغرافيا أو ثقافيا. كان هذا الاستمرار في الوجود يتطلب سياسة تتسم بدرجة متناهية في الدقة، والميل يمينا أو يسارا مع كل تغير، مهما كان يسيرا، في اتجاه الرياح السياسية العربية. ولابد أن يشهد المرء للملك حسين بأنه قام بهذا الدور ببراعة متناهية، فكان يتصالح ويتخاصم مع هذا الزعيم العربي أو ذاك في اللحظة الملائمة بالضبط وبالدرجة الملائمة بالضبط. تخاصم وتصالح مع عبد الناصر والسادات، ومع حافظ الأسد، ومع صدام حسين، ومع عائلة الصباح وأسرة ابن سعود، ليس بناء على مبدأ ولا حتى لتحقيق مصالح اقتصادية للأردن في الأساس، بل دائما لتحقيق هدف واحد ليس هناك غيره: استمرار الأردن كدولة.

* * *

كان من الطبيعي أن ينقسم المثقفون العرب إلى خمسة أقسام، كل قسم ينتصر لنوع من أنواع التبعية. إذ أن الكفاءات والمواهب التي يتطلبها الانتصار لنوع من أنواع التبعية تختلف اختلافا شديدا عن المواهب التي تتطلبها الأنواع الأخرى.

فالانتصار لتبعية صدام حسين مثلا، يتطلب درجة عالية من

التقدمية، أو على الأقل إجادة استخدام ألفاظها، كما يتطلب فهما لمزايا القومية العربية والاشتراكية، ولدور البطل فى التاريخ، بصرف النظر عما إذا كان هناك أى أمل فى تحقيق الوحدة العربية أو الاشتراكية على يد صدام. المهم هو الكلام، والحصول على جوائز صدام المختلفة، وهداياه من سيارات المرسيدس.. إلخ.

أما التبعية على الطريقة الكويتية فإنها تتطلب من المثقف الذى يقوم بخدمتها درجة معينة من التمسك بالاسلام، (لا يتطلبها النظام العراقى فى معظم الأحيان)، ولكن دون مبالغة فى الجرعة الدينية. فإذا تعلق الأمر بكتابة مسلسلات تليفزيونية فلا مانع من درجة من الترفيه، ولكن دون إسفاف، وبشرط أن يأتى الكلام خاليا من أى إشارة للاشتراكية أو القومية العربية.

أما التبعية على الطريقة السعودية، فتتطلب مهارات أكثر ندرة، ولهذا لم يفز بالحظوة لدى السعوديين من المثقفين العرب إلا عدد قليل جدا من الناس. فهى تتطلب معرفة لا حد لها بمعانى ألفاظ القرآن الكريم، لا تطلبها لا العراق ولا الكويت، مع التركيز بوجه خاص على الألفاظ المتعلقة بعذاب القبر ويوم القيامة، والأشكال المختلفة التى قد يتخذها الشيطان فى الحياة اليومية، مع تجنب أى إشارة من قريب أو بعيد إلى السياسة الخارجية أو الداخلية، أو إلى أى شىء يتعلق بإسرائيل، أو حتى بأحوال عامة المسلمين فى السعودية نفسها، أقصى ما يسمح به فى هذا الصدد هو الإشارة إلى أحوال المسلمين فى الفلبين.

لن أفيض فى الكلام عن صفات المثقف المصرى الذى قرر الانتصار

لسياسة الرئيس مبارك، فهي معروفة جيدا لجميع القراء. واكتفي بالقول بأن تبعية المثقف المصرى للسلطة فى مصر هى أهون بكثير من غيرها، فهى لم تصل إلى تأليه الحاكم بالدرجة التى وصلت إليها فى العراق، ولا إلى الامتناع التام عن الكلام فى الموضوع، كما فى الكويت، ولا إلي السخافات التى تقال فى استجداء النظام السعودى. والنفاق على الطريقة المصرية هو على أى حال فيه من الظرف وخفة الدم ما تفتقده الأنظمة الأخرى، إذ أن كلا من المنافق والمنافق فى مصر، لا يأخذ الآخر مأخذ الجد، وكلاهما يعرف أن الكلام غير صحيح وأنه أشبه بما يصدر من المغنى فى الأفراح الذى يشيد بجمال العروس ويشبهها بالقمر، وهو يعرف وهى تعرف، والمدعون جميعا يعرفون أنها دميمة للغاية.

الشيق هو أن تلاحظ ما يتطلبه الحصول على رضا النظام الأردنى. فالمثقف هنا عليه أن يسلك طريقا بالغ الدقة، ويراعى الكثير من التوازنات، كتلك التى يراعيها النظام الأردنى نفسه. فكل الموضوعات مسموح بها، ولكن فى حدود معينة لا يصحّ تجاوزها. لا مانع من الكلام عن القومية العربية، أو إسرائيل، أو حتى الاشتراكية، بشرط أن يظل الكلام اكاديميا، وبعيدا عن شئون السياسة الجارية، وعن نقد أى حكومة عربية بالذات. يمكن الكلام عن الماضى البعيد، والأفضل منه الكلام عن المستقبل الأبعد، كالحديث عن حالة التعليم فى البلاد العربية فى سنة ٢١٥٠، ولكن يستحسن تجنب الكلام عن حالة العرب الآن، إذ أن هذا قد يعرض دولة الأردن لمشاكل هى فى غنى عنها.

* * *

هكذا نرى أن المثقف العربي كان في وضع لا يحسد عليه في أول أغسطس ١٩٩٠، ومن ثم فإنه، عندما قام الرئيس صدام حسين بغزو الكويت، لم يكن لدى الرئيس العراقي ما يخشاه من المثقف العربي، فقد خبر الرئيس العراقي المثقفين العرب وعرفهم خير معرفة، كما لم يكن أيضا لدى الرئيس بوش ما يخشاه منهم.

والذي حدث من المثقفين العرب كان لابد أن نتوقعه: فانتصر البعض لصدام والبعض للشيخ جابر، والبعض للملك فهد.. إلخ، استمرارا لنفس المواقف السابقة، مع بعض التعديلات البسيطة: فمثلا هناك بعض اليساريين الذين رأوا من المناسب الانضمام لصفوف الشيخ جابر الأحمد، لأن اليسار بدا وكأنه لم يعد له مستقبل.

هناك أيضا بعض المثقفين الذين بالغوا مبالغة مقززة في تأييد الغزو الأمريكي للسعودية، ليس فقط لأن هذا هو الموقف المصري الرسمي، ولكن لأنهم هم أيضا قد أصابهم التعب، أو لأن فرص اقتناص المزيد من أموال السعودية يسيل لها أي لعاب.

ومع ذلك فإني لا أريد أن أبالغ : فهناك أولا كثير من المثقفين العرب الذين أيدوا هذا الموقف أو ذاك بناء على اقتناع حقيقي. هناك بلاشك من أيد صدام حسين عن اقتناع، وإن كنت أعتقد أن هؤلاء على خطأ تام، إذ أني أرى أنه ينفذ مخططا أمريكيا موضوعا سلفا، عن علم به أو عن غير علم، تحقيقا لأهداف سبق أن أشرت إليها. وهناك من أيد الرئيس مبارك عن اقتناع أو بناء على شعور تعاطف حقيقي مع مأساة الكويتيين، وهي مأساة حقيقية ليس لها أي مبرر أخلاقي أو قومي، ويجب ألا نهوّن

من أمرها مهما كان انتقادنا للنظام الكويتى نفسه.

هناك ثانيا كثيرون جدا من المثقفين، ممن لم يبيعوا رأيهم لأحد، وعددهم أكبر بكثير من المثقفين الذين باعوا أنفسهم. إنهم بالضرورة، وإن كانوا أكثر عددا بكثير، لا يلفتون الانتباه بنفس الدرجة، وذلك لسببين : الأول بديهى، وهو أن من لا يبيع نفسه لوسائل الاعلام، لا تتحدث عنه وسائل الاعلام، والثانى أن الرائحة الكريهة هى التى تزكم الأنوف. قد يبدو غريبا مع ذلك أن هؤلاء الآلاف المؤلفة من المثقفين الشرفاء لازالوا منخفضى الدخل والمرتبات بالرغم من صعوبة الدور الذى يقومون به. فمن أصعب الأمور، فيما يبدو لى - أن تكتب مقالا لا يرضى لا صدام ولا الشيخ جابر ولا الملك فهد ولا الرئيس مبارك، ولا الملك حسين. ربما كان تفسير ذلك أن الطلب هنا أهم من العرض. فعلى الرغم من صعوبة المهمة فإنه إذا لم يكن هناك أحد يطلبها وعلى استعداد لدفع ثمن لها فإنها ستظل بائرة فى الأسواق.

ولكن حتى فيما يتعلق بالمثقفين الذين سايروا هذا الاتجاه أو ذاك دون اقتناع كامل بصحته، علينا بالطبع ان ننقدهم، ولكن علينا ، فيما اعتقد ، أن نحذر المبالغة فى القسوة عليهم، وذلك لعدة أسباب. منها أننا نعيش فى زمن بالغ القسوة : من انعدام الرؤية وانحسار القوى التقدمية، وعدم ظهور بديل فكرى واضح ، فضلا عن التضخم الجامح الذى أذلّ اعناق الرجال. والمشكلة على أى حال ليست فى المثقفينالعرب وحدهم، بل وفى مثقفين العالم بأسره. ولا أظن أن أحدا يحب أن يتكرر ما حدث لمثقفين عظام مثل صلاح جاهين وصلاح عبد الصبور. وعلى أى حال، فمن كان منا

بلا خطيئة فليرم الآخرين بحجر. نعم ننتقد المداهنة والكلام بما يخالف الضمير، ولكن علينا الحذر من المبالغة فى الاعجاب بالنفس والقسوة على الآخرين.

* * *

إن وضع المثقف العربى اليوم محزن بالطبع، ولكن حال المثقف العربى ليس اسوأ من حال رجل السياسة أو رجل الجيش مثلا. والحزن على أى حال ليس جديدا، بل هو قديم. ربما كان الجرح قد نكىء من جديد، عندما حدثت نكبة الكويت، ولكن الجرح نفسه قديم وعميق، ولم يكن حتى قد التأم بعد عندما حدث غزو العراق للكويت. ربما أدت نكبة الخليج إلى زيادة الجرح عمقا، بل وربما زادته تلوثا، وربما كانت هى القشة الى قصمت ظهر البعير، ولكن هذا البعير الذى قصم ظهره هو جيلنا فقط من المثقفين والسياسيين، وهو جيل كان قد عفا عليه الزمن بالفعل، حتى قبل نكبة الكويت.

نحن جيل انهد كيانه فى الستينات بحرب ١٩٦٧، وتحطمت معنوياته فى السبعينات بخيانات السادات، وذهب التضخم والذل لامريكا بالبقية من طاقته فى الثمانينات. والأمل كان على أى حال، ولا يزال، معقودا على جيل جديد من المثقفين والسياسيين : لا ينسى شيئا، ولا يغفر شيئا، ويفهم كل شىء.

(٤)

حقيقة الإعفاء من الديون

الباحث عن الحقيقة في مصر كثيرا ما يكون أشبه بمن يحاول حل الألغاز أو فك الشفرة. فنصف الحقائق يخفى عنك عمدا، ونصف ما يقال لك يجرى تشويهه عمدا بقصد تضليلك. الحقيقة تصل إليك فى النهاية، ولكن فى أغلب الأحيان بعد أن يفوت الأوان، إذ تكون فرصة الإصلاح قد ضاعت، وضاع من عمر البلد ما ضاع، والمجرم قد أفلت من العقاب. فأنت قد تكتشف فظائع ارتكبها وزير أو رئيس للوزراة قضى فى منصبه خمس أو عشر سنوات، بعد أن يكون قد ترك منصبه، أو ترك البلد كلها، ويكون هذا الاكتشاف من تصريحات وزير لاحق يحاول أن يقول لك إن الخطأ ليس خطأه هو بل خطأ الوزير السابق، أو بسبب خلاف نشب بين صاحب نفوذ، وصاحب نفوذ آخر، أدى بهذا إلى أن يفضح ذاك. وقصة محافظ الجيزة الأسبق الذى أدانه القضاء منذ وقت قصير فى مخالفات جسيمة للغاية، بعد أن ظل

يحتل مناصب فى غاية الأهمية لمدة قد تصل إلى عشرين عاما، أصبحت الآن معروفة، بعد أن كان يجرى التستر عليه، لسبب أو آخر، طوال هذه المدة. وكذلك لا زالت قصة العمال المصريين فى العراق قريبة من الذاكرة: فقد ظلوا يقولون لنا إن جثث المصريين الآتية من العراق هى نتيجة وفيات طبيعية، وفى حدود المعدل الطبيعى للوفيات، وأن ما قد يكون قد حدث من اعتداء لا يزيد على أن يكون «حوادث فردية» من نوع ما يحدث عادة بين شقيق وشقيقه، حتى ساءت العلاقة بين مصر والعراق بسبب الكويت، فأصبحت الوفيات غير طبيعية وأحداث الاعتداء ليس من النوع الذى يصدر من شقيق ضد شقيقه.

وآخر القصص هى قصة ديون مصر الخارجية. فقد ظلوا خمسة عشر عاما يقولون لنا إن الديون ليست فى الحقيقة بالضخامة التى يظنها البعض، وأن معدل خدمة الدين لا زال عند مستواه الطبيعى، وأن مصر تقوم بسداد ديونها وفوائدها فى مواعيدها، وأن هذا الصندوق أو ذاك شهد بسلامة الاقتصاد المصرى وصحته، وأن ما تحصل عليه مصر من هذه الدولة أو تلك إنما هو من قبيل المنح التى لا ترد، أو القروض الميسرة التى لا ترهق كاهل الاقتصاد المصرى.. إلخ وقد كنا نقول، على العكس، إن حجم ديوننا قد فاق الحد، وأن أعباءها مما لا تستطيع مصر حمله، وأن حالتنا فى الديون أسوأ بكثير من حال غيرنا، فكانوا يستكثرون هذا القول ويستعظمونه، ويتهمون قائليه بالمعارضة من أجل المعارضة، أو بتشويه سمعة مصر.. إلخ حتى حدثت أزمة الخليج، ورأت الولايات المتحدة ودول الخليج إعفاءنا من بعض الديون، فإذا برئيس الجمهورية يحمد الله على ذلك فى إحدى خطبه،

ولكنه يضيف إلى ذلك ما معناه أنه لم يكن ينام الليل من شدة أعباء الديون، ومن حيرته في البحث عما يفعل، وما معناه أن أعباء الديون، لو عرفها الناس، لشاب لها الولدان.

هل نفهم من هذا إذن أن الحكومة قد عقدت العزم على أن تخبرنا بالحقيقة كلها فيما يتعلق بالديون، بعد أن تحسنت أحوالها وخف حملها وحصلت على هذه الإعفاءات العظيمة؟ لا أعتقد ذلك. فلا زال ما يقال عن هذه الإعفاءات بعيداً عن الحقيقة. وقد وقع بعض كتابنا الكبار، للأسف، في الفخ وظنوا أن ما وصلت عليه مصر من إعفاءات من شأنه تحسين صورة الاقتصاد المصري تحسيناً كبيراً، وأنه يمثل بداية مرحلة جديدة من التطور الاقتصادي تختلف عما سبقها. ووقفت الحكومة من الأمر موقفاً هو كالعادة غير لائق. فهي تريد الشيء ونقيضه، تريد أن يظن الناس إننا مقبولون على عهد من الرخاء والنعيم، ولا تريدهم أن يظنوا ذلك. ذلك أن الناس إذا ظنوا إن الإعفاءات ستجلب الرخاء والنعيم قلّ سخطهم وصبروا على الحكومة، ولكنهم إذا اعتقدوا ذلك حقاً كان من الصعب على الحكومة أن تتخذ من الإجراءات ما تعتزم اتخاذه تلبية لمطالب صندوق النقد الدولي، من رفع الأسعار وتسريح أعداد من الموظفين وتخفيض الانفاق على التعليم والصحة.. إلخ لهذا كان أنسب شيء يمكن للحكومة أن تقوله هو أن إعفاء مصر من الديون هو شيء عظيم حقاً وممتاز للغاية وسيخفض أعباءنا بشدة - ومن ثم علينا أن نشعر بالامتنان الشديد للدول التي أعفتنا من هذه الديون، وكذلك للحكومة التي استطاعت بسياستها العاقلة أن تحصل على هذه الإعفاءات، وعلينا أن نتفاءل خيراً بالمستقبل ونكف عن السخط

والانتقاد، ولكن على الناس، من ناحية أخرى، ألا يظنوا أن هذا الخير العميم الذى سيحل سوف يأتى بين يوم وليلة، أو أن معناه انخفاض الأسعار أو ارتفاع الدخول أو تخفيض البطالة.. إلخ ذلك أن هذا كله لن يتحقق إلا بمزيد من العمل والإنتاج، ومزيد من الخطط الخمسية وأهم من كل ذلك، مزيد من الصبر.

فما هى الحقيقة وسط هذا كله؟

الحقيقة فى رأيى، أن الجزء الذى أعفينا منه هو كبير حقا، ونسبته إلى إجمالى الديون لا يستهان بها ،ولكن أعباء خدمة ديون مصر، وأقصد بالذات حجم الفوائد، التى كان ولا يزال على مصر أن تدفعها، هو من الضخامة بحيث لا يمكن أن يحدث هذا التخفيض أى أثر يحس به المواطن العادى فى حياته اليومية، بل أن حجم هذه الفوائد كان ولا يزال من الضخامة بحيث أن مصر كانت عاجزة طوال الخمس سنوات الماضية عن الوفاء به، ومن ثم فإن المتأخرات أخذت فى التراكم. كما أن مصر، رغم ما حصلت عليه من إعفاءات، لا زال عليها من عبء الفوائد ما لا تستطيع الوفاء به، ومن ثم فإنه ما لم تتغير السياسة الاقتصادية تغيرا جذريا، ستظل المتأخرات تتراكم عاما بعد عام على الرغم من هذه الإعفاءات.

سوف يتبين القارىء صحة هذا من مطالعة أرقام الجدول الآتى التى أخذتها من تقرير غير منشور أعدته هيئة دولية لتوزعه توزيعا محدودا. وألفت نظر القارىء على الأخص إلى الأرقام المتعلقة بالفوائد فهى نادرا ما ترد بهذا الوضوح فى البيانات المنشورة.

(بالألف مليون دولار)

	٨٦/٨٥	٨٧/٨٦	٨٨/٨٧	٨٩/٨٨
ديون الحكومة أو ديون تضمنها الحكومة (متوسطة وطويلة الأجل - بما في ذلك الديون العسكرية)	٣٠,٢	٣٢,٧	٣٦,٠	٣٨,٦
ديون قصيرة الأجل	٤,٩	٤,٤	٤,٣	٤,٣
ديون القطاع الخاص	٢,٧	٢,٧	٢,٨	٢,٨
إجمالي ديون مصر الخارجية	٣٧,٨	٣٩,٨	٤٣,١	٤٥,٧
إجمالي الفوائد الواجبة الأداء	٢,٤	٢,٤	٢,٩	٣,٤
إجمالي الفوائد المدفوعة بالفعل	١,٤	١,١	٠,٨	١,٠
فوائد غير مدفوعة تضاف إلى المتأخرات	١,٠	١,٣	٢,١	٢,٤
إجمالي الصادرات السلعية	٣,٤	٢,٧	٣,٢	٢,٧
إجمالي الواردات السلعية	٩,٥	٧,٩	٩,٨	١٠,١
عجز الميزان التجاري	٦,١	٥,٢	٦,٦	٧,٤
عجز ميزان العمليات الجارية	٢,٥	٠,٤	٠,٣	٠,٥
عجز ميزان العمليات الجارية بما في ذلك الفوائد غير المدفوعة	٣,٥	١,٧	٢,٤	٢,٩

إذ يتبين من هذه الأرقام أنه، منذ منتصف الثمانينات، كان على مصر أن تدفع كسداد للفوائد على ديونها، مبلغا يتراوح بين ٤ر٢ بليون و٤ر٣ بليون دولار سنويا، وانها عجزت عن ذلك بالطبع، بالنظر إلى أن كل صادراتها السلعية (من بترول إلى قطن الى موالح الى منسوجات.. إلخ) لم تكن تجلب، في أفضل السنوات، أكثر من هذا المبلغ. كان أقصى ما استطاعت مصر دفعه من فوائد، خلال هذه الفترة، هو مبلغ يتراوح بين ٨٠٠ مليون و ٤ ، ١ بليون دولار، ومن ثم كان يتراكم عليها متأخرات كل سنة، هي قيمة الفوائد الواجبة الأداء وغير المدفوعة، تتراوح بين بليون دولار في ٨٥ / ١٩٨٦، و ٤ ، ٢ بليون في ٨٨ / ١٩٨٩.

نلاحظ أيضا أن الرقم المذكور في الجدول الإجمالي لديون مصر الخارجية، مدنية وعسكرية، قصيرة أو متوسطة أو طويلة الأجل، وسواء كان المدين هو الحكومة أو القطاع الخاص، هو ٧ , ٤٥ بليون دولار في ٨٨/ ٨٩ (أو بالدقة في ٣٠ يونية ١٩٨٩). وهو رقم كثيرا ما يذكر في البيانات الرسمية، ولكننا كثيرا ما نجد في وثائق أخرى، لا تقل أهمية واستحقاقا للثقة، مبلغا يتجاوز ذلك ويصل أحيانا إلى ٥٥ بليون دولار في نفس التاريخ. وتفسير ذلك على الأرجح هو أن مبلغ ٧ر٤٥ بليون دولار لا يشمل ما تراكم من متأخرات الفوائد، أي المستحقة على مصر ولم تدفع، وهي تقدر بنحو عشرة بلايين دولار في ١٩٨٩، فإذا اضفنا هذا المبلغ وصلنا إلى مبلغ ٧ر٥٥ بليون دورلار وهو على الأرجح إجمالي ما كانت مصر مدينة به في ٣٠ يونية ١٩٨٩.

فلننظر الآن إلى الاعفاءات التي حصلت عليها مصر مؤخرا وأثرها

فى التخفيف من عبء الديون والفوائد. فالذى يفهم من التصريحات الرسمية هو أن الولايات المتحدة قد أعفت مصر من ٧,١ بليون دولار من ديونها العسكرية، وأن دول الخليج اعفت مصر من مبلغ أقل قليلا من ذلك (٦,٦ بليون دولار) أى أن مجموع ما اعفت منه مصر يبلغ نحو ١٣,٧ بليون دولار وهو ما يساوى نحو ٣٠٪ من مجموع ديون مصر الخارجية. وهذا هو ما أعلنه وزير التعاون الدولى فى حينه، الذى أضاف قائلا أن هذا من شأنه أن يعفى مصر أيضا من دفع مبلغ من الفوائد يقرب من بليون دولار سنويا.

نريد أولا أن نلاحظ أن نسبة الاعفاءات المذكورة (٣٠٪) محسوبة على أساس أن الديون الإجمالى هو ٤٥ر٧ بليون، فإذا حسبناها على أساس أن إجمالى الدين هو ٥٥ر٧ بليون، كما ذكرنا حالا، تنخفض نسبة الاعفاء إلى ٢٥٪.

ولكن ليس هذا هو المهم، بل أن المهم هو أن إننا إذا افترضنا أن اعفاءنا من هذه المبالغ سيعفينا من فوائد قدرها نحو بليون دولار سنويا، فإننا لن نستطيع، على الرغم من ذلك، دفع كل الفوائد المتبقية والواجبة الدفع. فكما يتضح من الجدول، كان مبلغ الفوائد الذى عجزنا عن دفعة واضيف إلى المتاخرات هو : ١ر٣ بليون فى ٨٦/ ٨٧، ١ر٢ بليون فى ٨٧ / ٨٨. ٤ر٢ بليون فى ٨٨/ ٨٩. ومعنى هذا إننا إذا استمرت حالتنا الاقتصادية دون تغير ملموس، فإننا سنظل عاجزين عن تسديد كل ما علينا من فوائد حتى مع اعفائنا من بليون دولار سنويا.

وأصارح القارىء بأننى لا أجد غرابة فى ذلك، فليس مما عرف عن

الدائنين، إذا كان لهم مصلحة محققة فى أن يظل المدين تحت رحمتهم لأسباب اقتصادية وسياسية وعسكرية مختلفة، أن يتنازلوا عن ديونهم لدرجة تطلق المدين من عقاله ويفقد الدائنين سيطرتهم عليه. إن الولايات المتحدة لا يزال أمامها الكثير مما تريد من مصر أن تفعله فلابد أن يبقى على مصر من الديون ما تستطيع الولايات المتحدة استخدامه فى الضغط. أما دول الخليج فهى للأسف لا تلغى ديوننا إلا إذا رأت الولايات المتحدة تفعل ذلك كما أنها لم تكن تقدم لنا قروضا إلا إذا رأت الولايات المتحدة تفعل نفس الشيء.

إن أى إعفاء من الديون، مهما كان صغيرا، هو بالطبع أفضل من عدمه، ولكن من المفيد أن نعرف أن الاعفاء من الديون دائما له ثمن بعضه دفع مقدما، وبعضه يدفع الآن، وبعضه سيدفع فيما بعد. كما أن من المفيد أن نعرف أن الاقتصاد لا يبنى لا بالاستدانة ولا بالاعفاء من الديون، وإنما بوسائل مختلفة تماما.

(٥)

دفاع عن نظرية المؤامرة

أصارح القارىء بأنى، عندما قامت العراق باحتلال الكويت فى ٢ أغسطس ١٩٩٠ لم أستطع استساغة أى من التفسيرات الشائعة التى قدمت لهذا الاحتلال. لم أصدق أن السبب هو متاعب العراق الاقتصادية، أو نمو قوتها العسكرية، أو رغبة العراق فى وضع حد لتعدى الكويت على حقوقها فى البترول، أو اعتقاد العراق أن الكويت هى فى الحقيقة، جزء من العراق، أو رغبة العراق فى توحيد العرب، أو فى إعادة توزيع الثروة العربية بالعدل، أو مجرد طموح الرئيس العراقى إلى مزيد من السيطرة والنفوذ.... إلخ.

لم استسغ أيا من هذه التفسيرات رغم ترددها على أسماعنا منذ ٢ اغسطس صباح مساء، وذلك لعدة أسباب. منها أن ما حدث هو حادث فريد من نوعه، فالذاكرة لا تجلب إلى الذهن حادثا مماثلا من اعتداء دولة من دول

العالم الثالث على دولة أخرى إلى حد ابتلاعها ابتلاعا بزعم أنها جزء منها. وإذا كان الحادث بهذه الجسامة وهذه الغرابة فلا يكفى لتفسيره أسباب ودوافع تافهة لا تتناسب على الاطلاق مع خطورة الحادث ونتائجه. إنى لا أقصد بالطبع القول بأن «توحيد العرب» أو «إعادة توزيع الثروة العربية» هما من الدوافع «التافهة» ولكن التافه هو الظن بأن هذا أو ذاك هدفان ممكنا التحقيق الآن وبهذا الأسلوب.

من الأسباب أيضا أن الحاكم الذى قام بالاعتداء، مهما قيل فى وصفه يحكم أو يشترك فى حكم دولة مهمة من دول العالم الثالث منذ ٢٢ عاما، ولو كان من نوع الرجال القادرين على القيام بعمل بهذه الخطورة بوحى من تفكيره المستقل لما صبر عليه المجتمع الدولى والدول الكبرى طوال هذا الوقت. بل إن هناك من الدلائل ما يدل على تعاون وثيق بينه وبين هذه الدولة الكبرى أو تلك بل وصداقات حميمة بين نظامه وهذه الحكومة الأوربية أو تلك، كما أن حربه مع إيران التى استمرت ثمانى سنوات حظيت بنوع من «المباركة» والدعم من الدول الكبرى وحصل خلالها على قدر هائل من الأسلحة من نفس هذه الدول، ونحن نعرف أن الولايات المتحدة قد اسعفت النظام العراقى عندما بدا وكأنه يتعرض لخطر الهزيمة على يد إيران، حتى مكّنته من الانتصار، ناهيك عن مختلف التصريحات الودية التى صدرت لصالحه من جانب دولة غربية بعد أخرى، كان آخرها ما أعلن على الملأ من أن السفيرة الأمريكية الأخيرة فى بغداد قد أخبرته بأن واشنطن تعتبر موقفه من الكويت من المسائل التى لا تحب واشنطن أن تتدخل فيها.

أضف إلى ذلك أن الحادث حدث فى غمار تغيرات عنيفة وخطيرة

على نطاق العالم بأسره، وعلى الأخص فيما يتعلق بالعلاقة بين المعسكرين الشرقى والغربى : الامبراطورية السوفيتية تنهار، والحرب الباردة تنتهى، ودول أوربا الشرقية تتخلى عن الشيوعية واحدة بعد الأخرى، وألمانيا الشرقية تتحد مع الغربية. فإذا رأينا فى غمار هذا كله شيئا آخر على جانب كبير من الخطورة يحدث فى منطقة بالغة الحساسية من العالم، لما تحتويه من احتياطات البترول، فإن من المستبعد جدا أن يكون هذا الذى يحدث منبت الصلة بما يحدث فى بقية أجزاء العالم، وأن يكون مجرد تعبير عن طموحات غريبة لحاكم عراقى.

قلت لنفسى : إن العالم كله يدخل مرحلة جديدة تذكّر المرء بشدة بما يحدث فى أعقاب الحروب العالمية : امبراطوريات تنهار، وتحالفات تسقط، وقوميات صغيرة تطالب بالاستقلال، وتحالفات جديدة تنشأ، وأعداء الأمس يصبحون أصدقاء اليوم، والعكس بالعكس، والدول العظمى تضع لنفسها تصورًا لما تريد أن يكون عليه العالم الجديد، فلابد أن يكون هناك تصور جديد أيضا لهذا الجزء من العالم، البالغ الأهمية استراتيجيا واقتصاديا، بل ومن الجائز والمحتمل جدا أن يكون التنافس الجديد الذى يزداد حدة يوما بعد يوم، بين الولايات المتحدة من ناحية، وبين أوربا الغربية واليابان من ناحية أخرى، عاملا أساسيا فى تشكيل التحالفات الجديدة، والتقسيم الجديد لمناطق النفوذ، خاصة وأن أوربا الموحدة (أو أوربا ١٩٩٢) على الأبواب، وهذا يشكل مصدر قلق بالغ ومتزايد للولايات المتحدة، واقتصاد الولايات المتحدة يتعرض لمتاعب جمة تكاد تستعصى على العلاج، والولايات المتحدة تملك فى نفس الوقت أكبر قوة ضاربة فى العالم، فلاشك أن من أغرب

الأمور ألا تستخدم الولايات المتحدة هذه القوة الضاربة لتحسين موقفها النسبي في الاقتصاد الدولي، وتقوية مركزها التفاوضي مع أوربا الغربية واليابان.

خلاصة الأمر أني نظرت إلى ما حدث بين العراق والكويت على أنه وثيق الصلة بما يحدث في العالم، واعتبرت أن من الخطأ الفادح ألا يفسر أو يشخص كجزء من الصورة العامة. قليلون من يعرفون ماهية التصور الجديد الذي تحمله الولايات المتحدة للعالم فيما بعد الحرب الباردة، ومركز اسرائيل فيه : هل ستحقق إسرائيل مكاسب جديدة فيه أم ستحاول الولايات المتحدة وضع حد لنمو القوة والمطامع الاسرائيلية؟ وقليلون من يعرفون حدود القوة الأوربية واليابانية إذا اصطدمت ارادتهما بالارادة الأمريكية، كما أننا لا نعرف إلى أي حد وصل الضعف بالاتحاد السوفييتي وإلى أي حد تضاءل دوره في الجولة الجديدة من اللعبة الدولية. يمكننا أن نخمّن بعض العناصر هنا وهناك، وأن نرجح بعض الاحتمالات على غيرها، ولكن الذي بدا لي شبه مؤكد ولا يحتمل الجدل هو أن ما حدث بين العراق والكويت هو جزء من هذه التطورات الدولية الخطيرة وليس خارجا عنها أو تحديا لها، وأنه يمثل إحدى خطوات تنفيذ هذا التصور العام لعالم ما بعد الحرب الباردة.

تلا الغزو ما نعرفه بالطبع من الزحف الأمريكي الكثيف على السعودية وعشرات التصريحات كل يوم بعضها يقول إننا أتينا فقط لتأديب العراق، وبعضها يقول أننا أتينا لنبقى. بعضها يقول إن الحرب قادمة لا محالة، وبعضها يقول أن السلم أفضل من الحرب. عشنا هذا لأكثر من

خمسة أشهر، فلم أزدد الا اقتناعا بأن غزو العراق للكويت لم يكن عملا فرديا، تعبيرا عن مطامع شخص واحد أو نظام واحد، بل هو إجراء اعتبرته بعض المصالح الأساسية في النظام الدولى ضروريا أو مفيدا للغاية كجزء من إعادة تنظيم العالم، ومنطقة الشرق الأوسط على وجه الخصوص، في عهد ما بعد الحرب الباردة، لخدمة هذه المصالح، وأن النهاية التى سوف نشهدها لهذا الغزو لابد أن تحقق الأهداف التى توختها أصلا هذه المصالح، أو على الأقل لابد أن تعكس نتيجة تفاعل وتضارب بعض المصالح الأساسية في النظام الدولي، كالتفاعل والتضارب بين المصالح الأمريكية والأوربية واليابانية مثلا وبوجه خاص، وقد نضيف إلى ذلك المصالح الإسرائيلية أيضا. أما المصالح العربية، فإنى استبعدها للآسف لأسباب سبق ذكرها، ويكفى القول بأن العرب قد مضى عليهم زمن طويل، وهم لا يمارسون دورا ايجابيا أو فاعلا في تطور النظام الاقليمى الذى ينتمون هم أنفسهم إليه.

هذه النظرة للأمور لا يميل إليها الكثيرون. وكثيرون من الناس يطلقون عليها اسم «نظرية المؤامرة» ويصفون أصحابها بالشطط والمبالغة فى الخيال، والبعد عن الموقف العلمى، والبعض يشبّهونها بالاعتقاد فى الكرامات والمعجزات، ويقولون أنها الصورة العصرية للإيمان بالأساطير. واسم «نظرية المؤامرة» لا يزعجنى كثيرا وإن كنت اعتبره اسما غير دقيق. فالاعتقاد بصحة ما ذكرت فى السطورالسابقة لا يعنى بالضرورة الاعتقاد بوجود «مؤامرة»، كل ما يعنيه هو الاعتقاد بأن الدول الكبرى، أو دولة كبيرة ما، تلعب الدور الحاسم فى تخطيط وتنفيذ كثير مما يحدث فى العالم، خاصة فى العالم الثالث، بما فى ذلك أحداث كثيرة تصوّر لنا وكأن

الدول الكبرى لم يكن لها دخل فيها بل وكأنها تحدث ضد إرادتها. إن هذا لا يتطلب بالضرورة أن تكون هناك مؤامرة بالمعنى الحرفى للمؤامرة، ليس من الضرورى مثلا أن يكون الرئيس بوش قد جلس يوما مع الرئيس صدام حسين، وعلى وجه كل منهما ابتسامات شيطانية، يخططان لغزو الكويت، بل إن من الممكن جدا أن يدفع صدام حسين إلى القيام بعمل معين دون أن يكون واعيا وعيا تاما بدوافعه ونتائجه، أو على الأقل دون أن يقال له بالضبط أهداف الخطة وأبعادها وخطوات تنفيذها خطوة بخطوة. إن الأمر هو مؤامرة فقط بمعنى أن الضحية أو الضحايا، وهم فى العادة من الأفراد العاديين الذين لا يدخلون طرفا فى اللعبة السياسية، لا يدرون الأسباب الحقيقية لما يحدث، بل وتبذل جهود متعمدة لتضليلهم.

إذا كان هذا هو المقصود بنظرية المؤامرة، فما هو المستهجن فيها وأين الشطط والبعد عن الموقف العلمى؟ وما هو وجه الشبه بينها وبين الإيمان بالأساطير القديمة؟ أليس صحيحا أن ثلاثة أرباع أحداث التاريخ الكبرى، إن لم يكن أكثر، منذ أن كانت هناك دول كبرى ودول صغرى، قد اتضح بعد أن عرفت الحقائق، وأفرج عن الوثائق السرية، ونشرت مذكرات أصحاب اليد الطولى فيها، أنها كانت نتيجة «مؤامرات» بمعنى أن دولة أو أكثر من الدول الكبرى خططتها ونفذتها، وإن ما قيل لنا وقتها كان عكس الحقيقة بالضبط؟ ألا نقبل جميعا الآن أن الذى أسقط محمد على كان مؤامرة، وأن ما كانت تقوله بريطانيا وقتها كان عكس الحقيقة؟ ألا نقبل جميعا الآن أن سقوط إسماعيل كان مؤامرة وأن الاحتلال الإنجليزى لم يكن بسبب شجار دار بين حمّار مصرى ورجل مالطى؟ ألم تكون معاهدة سايكس بيكو

مؤامرة، لم يفضحها إلا ما نشرته الثورة الروسية من وثائق؟ ألم يكن إنشاء دولة إسرائيل سنة ١٩٤٨ مؤامرة؟ ألم تكن حرب ١٩٦٧ مؤامرة؟ هل يريد رافضو «نظرة المؤامرة» منا أن ننتظر فى كل مرة، خمسين عاما أو أكثر قبل أن نعترف ونصدق أن ما حدث كان فى الواقع تنفيذا «لمؤامرة»؟ وكم سنة يا ترى سوف يطلبون منا أن ننتظر قبل أن يسمحوا لنا بتقديم مثل هذا التشخيص لغزو العراق للكويت؟

* * *

أو فلنترك التاريخ جانبا ولنحتكم إلى المنطق. أليس من المعقول أن نتوقع أن تزداد احتمالات المؤامرة- فى عالم تتداخل فيه مصالح الدول، أكثر فأكثر، يوما بعد يوم، وتتسع دائرة هذه المصالح لتشمل الكرة الأرضية كلها بل والفضاء، فلا يكون فى وسع أى من الدول الكبرى، حتى إذا كان فى وسعها فى الماضى، أن تتجاهل ما يحدث خارج حدودها، وفى وقت تملك فيه هذه الدول، أكثر منها فى أى وقت مضى، وسائل التدخل والضغط فى أصغر صغيرة تحدث خارج حدودها، وفى وقت تتسع فيه الفجوة، أكثر فأكثر بين قدرات هذه الدول الكبرى وقدرات دول العالم الثالث الاقتصادية والتكنولوجية والعسكرية، وفى عالم وصلت فيه وسائل الإعلام، أو بالأحرى وسائل الخداع وغسيل المخ، إلى درجة من الكفاءة لم تعرفها البشرية من قبل؟ بعبارة أخرى، نحن نعيش فى عصر بلغت فيه كل من حاجة وقدرة الدول العظمى على التحكم فى مصير العالم الثالث مبلغا لم نعرفه من قبل، وفى الوقت نفسه بلغت فيه قدرة الدول نفسها على إظهار الأمور على غير حقيقتها مبلغا لم نعرفه من قبل: أليس من شأن هذا أن يجعل احتمالات

«المؤامرة» أكبر وأوسع منها فى أى وقت مضى؟

* * *

على الرغم من كل ذلك فإن هناك الكثيرين ممن يرفضون الاقتناع أو التسليم بنظرية المؤامرة، ذلك أن هناك الكثيرين ممن لهم «مصلحة» ما (مع الاختلاف الكبير فى طبيعة هذه المصالح) فى عدم الاقتناع أو عدم التسليم بها. من بين هؤلاء يكفى أن أذكر الأمثلة الستة الآتية:

١ - حكومات الدول الكبرى نفسها، والمنتصرون لها والمدافعون بالحق أو بالباطل عن سياساتها. ذلك أن القول «بالمؤامرة» يظهر هذه السياسات فى معظم الأحوال فى صورة غير أخلاقية. ويندرج فى هذا القسم أصدقائى من الأمريكيين الذين، كلما عبرت لهم عن رأيى فى هذا الحدث السياسى أو ذلك مما يثير شبهة شديدة فى دور الولايات المتحدة فيه، قالوا: «آه.. ها هى ذى نظرية المؤامرة مرة أخرى.. إن عيب هذه النظرية الأساسى هو أن أصحابها يتصورون أن الولايات المتحدة أذكى بكثير مما هى فى الحقيقة. إن واضعى السياسة الأمريكية ومنفذيها، على عكس ما يتصور أصحاب نظرية المؤامرة، يتمتعون بدرجة كبيرة من الغباء..».

وردى على ذلك هو أن الدولة العظمى تتمتع، تلقائيا، بدرجة عالية من «الذكاء» وأقصد بذلك الذكاء المستمد من القوة نفسها، ومن تقدم أساليب المعرفة والتحليل، ومن القدرة على التصرف الحر، ومن القدرة على التصحيح السريع للأخطاء إذا وقعت أخطاء.

كما أن الدولة «العظمى» ليس في وسعها أن تتصرف «بغباء» حتى لو أرادت، إذ أن مسئولياتها، الدولية والوطنية، تمنعها من ذلك، وإلا تعرّض العالم لمخاطر أكبر بكثير مما يتعرض له بالفعل. كما أنني أفهم جيدا لماذا يفضل المرء أن توصف تصرفات أمته بالغباء على أن توصف باللاأخلاقية.

٢ - وسائل الإعلام في هذه الدول الكبرى لنفس السبب المتقدم.

٣ - الحكومات التابعة للدول الكبرى، ووسائل إعلامها، لأنها لا تريد أو لا تملك أن تفضح الدولة المتبوعة، ولا أن تفضح نفسها.

٤ - كثير من مثقفي الدول التابعة الذين لا يريدون أن يتهموا حكوماتهم بأن لا حول لها ولا قوة، أو الذين يتكسبون من التظاهر بأن حكوماتهم تتصرف تصرفات مستقلة.

٥ - معظم المشتغلين بالعلوم السياسية في بلادنا وخارجها، الذين يفضّلون إضاعة وقتهم ووقتنا في الانشغال بأمور لا نفع فيها، مثل الجدل حول ما إذا كانت مصر والعراق تتنافسان على زعامة العالم العربي، أو حول عدد الدبابات أو الطائرات التي يملكها صدام حسين.. إلخ إذ أن الحديث في مثل هذه الأمور هو النوع الوحيد من الحديث الذي يستطيعون التفوق فيه على كلام الأفراد العاديين في السياسة، بصرف النظر عما إذا كان هناك أي نفع منه.

٦ - طائفة كبيرة من «الثوريين» الذين لا يستطيعون العيش إذا تبينوا أن «الثورة» من النوع الذي يحلمون به، غير ممكنة، أو أنها ليست على

الأبواب، أو أن فرص نجاحها ضئيلة للغاية، أو إذا تبينوا أن الدولة المتزعمة للمعسكر الثورى فى العالم، أو كانت متزعمة له، كانت دائما تتصرف كدولة عظمى لا كقائدة لثورة عالمية، ومن ثم فإنها كانت كغيرها تحيك المؤامرات وتدبر الانقلابات هنا وهناك، بقدر استطاعتها، ولصالحها كدولة عظمى.

قد يعتبر البعض هذا الحديث إفراطا فى التشاؤم، ولكنى لا اعتبره كذلك «فالمؤامرة» ليست دائما ضد تقدّم العالم أو هى على الأقل ليست ضد التقدم فى جميع المجالات. إن ضحاياها كثيرون فى معظم الأحوال، وهى تتسم بالخداع وتضليل الناس فى جميع الأحوال، ولكن الإنسانية قد أحرزت تقدما هائلا على الرغم منها، بل وفى كثير من الأحيان «بسببها». وليس هناك أى سبب يدعونا للاعتقاد بأن الإنسانية سوف تتوقف عن التقدم فيما سيأتى من سنين، لمجرد أن الدول الكبرى «تتآمر» ضد الدول الصغرى.

(٦)

عزيزى الأستاذ أحمد بهاء الدين

الأخ العزيز الأستاذ أحمد بهاء الدين

تحية طيبة وبعد :

فقد لاحظت مؤخرا أن غياب عمودك اليومى بالأهرام، لمدة كادت تصل إلى عشرة أشهر، منذ أن لزمت الفراش مريضا، قد أدى إلى تخبط الناس تخبطا شديدا فى تفسير أحداث الخليج ونكبة الكويت، وما تلاها من انضمام الجيش المصرى إلى الجيش الأمريكى فى السعودية، ثم نشوب الحرب بيننا وبين العراق.. إلخ. تخبط الناس وانقسموا فيما بينهم بدرجة لم نعرفها من قبل، حتى إنك لتجد داخل الحزب الواحد والجريدة الواحدة والأسرة الواحدة، من يؤيد صدام حسين تأييدا كاملا، ومن يعتبره الشيطان الرجيم

نفسه، وانقسم التيار الديني الواحد إلى من يعتبر استدعاء القوات الأمريكية من جانب دولة عربية ومسلمة لمقاتلة دولة عربية ومسلمة أخرى، عملا يرضاه الدين ويقره، ومن يعتبره على العكس بمثابة خروج على الدين يأباه الله ورسوله.

خطر لى أنه لا بد أن تكون هناك علاقة سببية بين غياب عمودك اليومى وبين هذا التخبط والانقسام غير المعهودين. فقد اعتاد الناس إذا استيقظوا فى الصباح أن يبدأوا بقراءة هذا العامود، فإذا عرفوا رأيك فى القضية المثارة يومها ارتاحوا إليه ووجدوا فيه الصواب بعينه فتبنوه وانشغلوا بعد ذلك بأمور حياتهم العادية. أما وقد غاب عنهم هذا العامود لهذه الفترة الطويلة، ولم يجد الناس ما يقرأونه، فقد اشتبك الأخ مع أخيه، وعضو الحزب مع زميله، ورئيس تحرير الجريدة مع محرريها، بل أعرف من الناس من أصبح يغيّر رأيه فى صدام حسين وغزو الكويت كل عشر دقائق، لا يقر له قرار ولا تهدأ له نفس.

بل لا أخفى عنك خاطرا آخر خطر لى. فنحن جميعا نعرف بُعد نظرك وحكمتك وأنك، بجانب ذلك، تتمتع بدرجة لا يستهان بها من الدهاء، وإن كان من نوع الدهاء المحبب إلى النفس بل والضرورى فى هذا العالم الشرير الذى نعيش فيه، إذ ما كان من الممكن بغير بعض الدهاء أن يسمحوا لك بأن تستمر فى كتابة ما تكتب أكثر من يومين أو ثلاثة. كذلك نعرف شدة انفعالك لشئون وطنك، المصرى والعربى، وحساسيتك البالغة لما يحدث لمصر والعرب. لهذا خطر لى أنك، وقد أحسست بالمصيبة قادمة، رأيت من الحكمة أن تمرض وتلزم الفراش، على أساس أن أى شىء أهون من

أن يرى المرىء أمته وهى تداس بالأقدام على هذا النحو من كل من هب ودب، من دبابات صدام حسين، إلى الجنود والجنديات الأمريكيين وقد جاءوا لحماية الكعبة والأماكن المقدسة، إلى الإسرائيليين وهم يتفرجون علينا، إلى جرائدنا وهى تتعاطف مع الإسرائيليين ضد العراقيين.. إلخ. ربما تكون قد رأيت من الحكمة أن تلزم الفراش لكيلا ترى كل هذا.

إنى أستبعد بشدة أن تذهب العلاقة بين مرضك وبين هذه الأحداث المريرة إلى أبعد من هذا. فلا أعتقد أن من الممكن مثلا أن يكون صدام حسين قد انتهز فرصة توقفك عن الكتابة فأسرع باحتلال الكويت، أو أن الأمريكيين انتهزوا الفرصة فارسلوا نصف مليون جندى إلى السعودية. اعتقد أن المسألة لا تزيد عن أن تكون ضربة حظ، لا أكثر ولا أقل، أن تصادف أن اقترن تخطيطهم لهذه المؤامرة بفترة مرضك، وإن كان هذا لا يمنع من أنهم، بعد أن خططوا لهذه المؤامرة، حاولوا الاستفادة بقدر الإمكان من عدم وجود من يقول لهم ما كان يجب أن يقال، ويصفهم بما يستحقون من صفات.

* * *

على أى حال، لقد حاولت وقد طال غيابك على هذا النحو، أن أخمن ما يمكن أن يكون عليه رأيك فيما تعرضنا له منذ ٢ أغسطس، وما الذى كنت على الأرجح ستكتبه. حالفنى التوفيق أحيانا ولم يحالفنى فى أحيان أخرى. لم أجد صعوبة مثلا فى تخمين رأيك فى غزو صدام حسين للكويت. لا شك أنك كنت ستدين الغزو إدانة كاملة، ليس هذا فحسب، بل كنت على

الأرجح ستسخر سخرية مرة من كل ما قدمه صدام حسين من تبريرات لهذا الغزو. فعلى الرغم من أنك من أشد أنصار الوحدة العربية فالأرجح أنك كنت ستجد القول بأن غزو الكويت خطوة فى طريق الوحدة، من أكثر الأقوال سخافة. ليس فقط لأن من يريد توحيد دولتين عربيتين لا يتوقع منه أن يخلع أعمدة النور وبعض الأجهزة والمعدات وينقلها من إحداهما إلى الأخرى، بل ولأن ضم شعب إلى آخر لا يكون بإيقاظه عند الفجر على صوت الدبابات دون أن يكون قد أخطره أحد من قبل بأن الوحدة ستتحقق فى هذا الصباح بالذات. أما الدعوى بأن الغرض من غزو الكويت هو إعادة توزيع الثروة بين الشعوب العربية بالتساوى، فالأرجح أنك كنت ستسخر منها أيضا على أساس أن الذى يدعى هذا لم يعرف عنه أنه وزع ثروته هو بالتساوى، بل ولا حتى أنه احتفظ بما لديه من ثروة بل ضيع أغلبها فى شراء أسلحة لم يفد منها فقراء العراق بل أغنياء أوربا والولايات المتحدة. أما القول بأن الغرض من احتلال الكويت هو تحرير فلسطين، وذلك على طريقة اختطاف شخص والاحتفاظ به كرهينة، فلا تقبل إعادة الكويت للكويتيين حتى تعاد فلسطين للفلسطينيين، فقد كان من الممكن قبوله لو كانت الكويت شيئا عزيزا جدا لدى الإسرائيليين أو حتى الأمريكيين، بحيث يمكن أن يقبلوا ردّ هذه فى مقابل تلك. ولكن الحقيقة أن مصلحة الكويتيين لا تحتل أولوية عالية لدى إسرائيل أو الولايات المتحدة. فكان من الواجب أن يدرك الرئيس صدام أن حل مشكلة فلسطين عن هذا الطريق هو أمر بعيد الاحتمال جدا.

على أن أغلب سخطك ونقدك المرّكان على الأرجح سينصبّ على

الولايات المتحدة والغرب عموما. وكم يؤسفنى أن مرضك قد منعك من أن تمسك بقلمك الرائع لتفضح هؤلاء المنافقين عديمى الحياء وذوى الألف وجه. فهم الذين سلحوا صدام حسين وجعلوا منه دكتاتورا وبنوا له مصانع الأسلحة، الكيميائى منها وغير الكيميائى، وهم الذين علموه استخدام الصواريخ، وهم الذين دفعوه إلى الهجوم على إيران، ثم ساعدوه على الانتصار عندما بدا غير قادر على ذلك. فإذا كانوا شبّهوه بهتلر بعد ذلك فهم الذين سمحوا له وهيأوا له أن يتصرف وكأنه كذلك، وهو على أى حال ليس بهتلر بل هم أصحاب المصلحة فى هذا التشبيه ليستمروا فى خداع العالم وخداع شعوبهم هم أنفسهم تمكينا لصناعة الأسلحة وتجارها من تحقيق مزيد من الأرباح، ولتحقيق مخططهم الذى سبق إعداده للشرق الأوسط بعد أن انتهى دور الاتحاد السوفيتى وانتهت الحرب الباردة.

لم أجد صعوبة أيضا فى أن أخمّن درجة المرارة التى كانت ستقطر من سطورك وأنت تكتب عن إسرائيل، وعن تدليل الغرب لها وهى تمثل دور الحمل الوديع إذ تسقط عليها الصواريخ دون ذنب جنته، ويرجوها الغرب أن تمارس ضبط النفس فتتمتنع ثم تقول: «لا مانع، سأحاول أن أضبط نفسى بضعة أيام أخرى، إلا إذا...» فيشكرها الغرب على ما تكرمت به من ضبط النفس، وهى فضيلة لم تشتهر بها إسرائيل على أى حال، منذ مذبحة دير ياسين ومذابح صبرا وشاتيلا وحتى الانتفاضة، بل عادتها ألا تنتظر حتى يصبح الشخص إرهابيا، بل تقتله لمجرد الاشتباه فى أنه قد يتحول إلى إرهابى. وهى فى العادة لا تنتظر حتى يهاجمها أحد بل تحتل دولة بعد أخرى لتأمين حدودها ضد أى هجوم محتمل أو متخيل. على أى حال لقد

مارست إسرائيل ضبط النفس هذه المرة لسبب لا نعرفه بعد ولكننا سوف نعرفه بلا شك بعد قليل. وقد طالبت إسرائيل منذ أيام، مقابل ضبط النفس هذا بثلاثة عشر ألف مليون دولار من الولايات المتحدة، التي وعدت بالنظر في الأمر بعين العطف.

* * *

لا شك أنك كنت أيضا ستضع كل ثقلك مع الحل العربي، عندما بدا هذا الحل ممكنا: أن يقوم العرب بإرسال قوة تحلّ محل القوات الأمريكية وتشرف على انسحاب العراقيين دون أن يلحقهم أذى، ويعود الكويتيون إلى بلادهم. ولكن حتى كل وزنك ومكانتك ما كانا سيفلحان في إثناء الولايات المتحدة عن عزمها على إفساد أي محاولة لحل الأزمة حلاً عربيا، إذْ كلما لاحت فرصة للموافقة على هذا الحل استقل بيكر طائرة مسرعا إلى القاهرة أو الرياض لوضع العراقيل أمام تنفيذه، ورضخنا نحن بكل خيبة للإرادة الأمريكية. لا بد أن هذا سيستفزك بشدة ويستشيط له غضبك، فلو لم تكن قد مرضت قبله لمرضت بسببه. إذ لم يبد العرب، في أي وقت من الأوقات، في صورة أكثر ذلة وهوانا منهم حينئذ.

* * *

أنا أعرف أنك لا تميل إلى ما يسمى بالتفسير التآمري للتاريخ، بينما أميل أنا إليه. ومع هذا فإني أظن أني أعرف سبب نفورك من هذه النظرية، وهو أنك على الرغم من أن مهنتك الأساسية هي الصحافة، فأنت في الحقيقة أستاذ. والأستاذ بطبعه ينفر من أن يتعامل مع غير الحقائق

الملموسة والمؤكدة ويكره التخمين والتكهنات. فنفورك من نظرية المؤامرة يرجع، فى اعتقادى، ليس إلى أن لديك من الأدلة ما ينفيها، ولكن أنك لا تجد أمامك أدلة كافية عليها. كان الأجدر إذن أن أنفر أنا من نظرية المؤامرة وتميل إليها أنت، ولكن هذا لا يعنى بالضرورة أنك مصيب دائما عندما ترفضها وأنى مخطىء دائما عندما أقبلها. فلا زلت فى الواقع أميل إلى الاعتقاد بأن ما يحدث لنا فى الخليج وما سيسفر عنه فى المنطقة العربية وإسرائيل، هو تنفيذ لمخطط سابق وضعته فى الأساس الولايات المتحدة، وأنها هى التى دفعت صدام حسين دفعا، بطريقة أو أخرى، إلى غزو الكويت ولا يهم كثيرا كيف تم ذلك الدفع، وذلك تحقيقا لأهداف لا علاقة لها البتة بالأهداف المزعومة المعلنة: الدفاع عن الشرعية، أو معاقبة الدكتاتوريين.. إلخ فتاريخ السياسة الأمريكية، بل التاريخ الأمريكى نفسه، لا يدل على اهتمام بالغ من جانب الأمريكيين بمسائل الشرعية ومعاداة الديكتاتورية، منذ أن استأصلوا الهنود الحمر واغتصبوا أراضيهم، حتى ناصروا إسرائيل وساندوها بكل ما يملكون من سلاح ومال، وأسقطوا الرئيس الديمقراطى لشيلى ونصبوا الديكتاتوريين من عملائهم فى شيلى وسائر أمريكا اللاتينية وإيران والباكستان والفلبين.. إلخ. أهداف المخطط الأمريكى للمنطقة لا علاقة لها إذن لا بالشرعية أو الديمقراطية، والأفضل أن نبحث عنها فيما يتعلق بعلاقة أمريكا بمنافسيها الجدد فى أوروبا الغربية واليابان، أو بأهداف توسعية جديدة لإسرائيل أو بالأمرين معا. ولا شك فى أنك يا أستاذ بهاء، تخشى مثلنا أن يسفر الأمر مرة أخرى عن مكاسب لإسرائيل على حساب الفلسطينيين وبقية العرب، فأنت نفسك الذى قلت

قبل مرضك بشهور قليلة إن إسرائيل سوف تخلق ظروف حرب قبل انقضاء عام، تتخذ منها ستارا لتوسع جديد وطرد الفلسطينيين مرة أخرى إلى خارج بلادهم. بل أظن أنك قلت، إذا لم تكن قد خانتني الذاكرة، أنك على ثقة بذلك لدرجة أنك مستعد للرهان عليه.

إنك أيضا أنت الذى أطلقت على هجرة اليهود السوفييت إلى إسرائيل اسم «جريمة العصر» وكلنا يعرف أن انفعالك الشديد وحزنك العميق لهذا الأمر له علاقة وثيقة بمرضك. وها قد تمخض الأمر، وأنت طريح الفراش، عن جريمة أكبر وأفظع، وخيبة وعار للعرب يقشعر لهما البدن، وضياع وانقسام لم تسمع بمثلهما من قبل. كنّا نبكى على توقيع مصر على اتفاقية كامب دافيد وعلى صلح منفرد مع إسرائيل، ثم رأينا بقية العرب يصالحون مصر دون أن ترجع عن صلحها مع إسرائيل، ثم رأينا مصر ونصف العرب يجزعون أشد الجزع لوقوع صاروخ عراقى على تل أبيب، ويفرحون بسقوط القنابل الأمريكية على بغداد.

لقد حالفك الحظ هذه المرة أيضا يا أستاذ بهاء، فألزمك الأطباء الفراش أثناء كل ذلك، ومنعوك من متابعة الأخبار وقراءة الصحف. ومع كل هذا فنحن لا نتمنى لك هذه الراحة، ونريدك معنا من جديد، تنفعل كما كنت تنفعل، وتبكى كما نبكى. وشفاك الله وعافاك وجنّبك كل سوء.

(٧)

الدين.. وحرب الخليج

مرة أخرى يقحم الدين بغير حق فى مسألة سياسية بحت، وهى حرب الخليج، فيتخاصم فريقان حول ما إذا كان صدام على حق فى غزو الكويت، أو السعودية على حق فى أستدعاء القوات الأمريكية لطرده، ويتبادل الفريقان أقسى الاتهامات وأعنفها، يقحم فيها كلها الإسلام والله ورسوله والقرآن الكريم، فلا يصاب فى كل هذا بالأذى إلا الإسلام والله ورسوله والقرآن الكريم.

هذه بالطبع ليست المرة الأولى. فتاريخ الإسلام السياسى كما يعرف الجميع، منذ مقتل عثمان، هو تاريخ صراع سياسىٍ يحارب فيه كل طرف ضد الآخر باسم الدين، ولكن الصراع لم ينشأ فى الأصل بسبب الاختلاف فى تفسير الدين بل نشأ الاختلاف فى تفسير الدين بسبب الصراع، لا أقول إن

الصراع كان دائما مدفوعا بأغراض شخصية، فقد كان بعض الأطراف أحيانا مدفوعا بأنبل الدوافع، مثل على بن أبى طالب فى خلافه مع معاوية، ولكن هذا لا ينفى أن الاختلاف فى تفسير الدين، ربما فى جميع الأحوال، يأتى لاحقا على اختلاف آخر: إما لاحقا على اختلاف فى المصالح الشخصية أو السياسية أو فى تقدير لما تكمن فيه مصلحة المسلمين. إنى إذن أربأ بأحد أن يظن أن الشيخ متولى الشعراوى أو الدكتور خلف الله مثلا جلسا أولا، قبل تكوين رأى فى موضوع غزو الكويت، فقرآ القرآن مرة أخرى وراجعا كتب السنة، وتوصّلا بعد تقليب فى كتب التفسير والفقه، إلى أن الإسلام يؤيد استدعاء القوات الأمريكية،- رجالا ونساء- ألى حفر الباطن، فى الحالة الأولى، أو إلى أن هذا الأستدعاء كفر صريح وخروج تام عن الإسلام فى الحالة الثانية. وإنما الارجح أن كلا منهما قد أتخذ موقفه بناء على أسباب أخرى ثم شرعا فى البحث عن موقف الدين بعد ذلك.

إقحام الدين فى السياسة ليس جديدا، ولكن إقحامه فى الخلاف الراهن حول حرب الخليج يبدو لى أشد قبحا وأكثر فجاجة من كثير من الحالات السابقة، ربما باستثناء الخلاف حول ما إذا كان الإسلام يقرّ أو لا يقرّ توقيع اتفاقية كامب ديفيد فى ١٩٧٩.ذلك أن بعض أطراف الخلاف الراهن، بل وبعض زعمائه، لم يعرف عنهم ورع شديد، بل وكانوا حتى وقت قريب أقرب بكثير إلى العلمانية منهم إلى التدين. ولكن الافدح من ذلك أن نفس هؤلاء سبق لهم منذ وقت قريب جداً أن دافعوا عن عكس ما يدافعون عنه الآن، وباسم الدين أيضا. فالذين يقولون اليوم إن الإسلام يقرّ غزو صدام حسين للكويت كانوا يقرّون منذ وقت قريب ضرب صدام حسين لثورة إيران

الإسلامية. وفى الطرف الآخر، نجد أن الذين يقولون اليوم أن الإسلام يقرّ ضرب صدام حسين واستدعاء الأمريكيين لضربه، كانوا يقرّون منذ وقت قريب إعطاء المعونات السخية لصدام حسين لمحاربة الثورة الإسلامية فى إيران. معنى هذا أننا لو سايرنا هؤلاء أو هؤلاء لكنّا بذلك نضع الإسلام فى موقف لا يحسد عليه بالمرة: إذ يبدو الإسلام، فى يد المنتصرين لصدام حسين، وكأنه مع العراق عندما حارب الثورة الإسلامية باسم العروبة، وهو أيضا مع العراق عندما يحارب العرب باسم الإسلام، والإسلام فى يد المنتصرين للحكومة السعودية يبدو وكأنه يؤيد الحكومة السعودية عندما تساعد العراق بالأموال الغفيرة لضرب الثورة الإسلامية مع إيران، ويؤيدها أيضا عندما تستدعى الأمريكيين لضرب العراق.

أما الإسلام فى يد المنتصرين للحكومة المصرية، فأنه يبدو وكأنه يقف دائما مع السياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط: عندما لا ترى هذه السياسة أية غضاضة فى أن تشترك مصر مع العراق فى تكوين مجلس التعاون العربى، وعندما ترسل قواتها لضرب العراق فى الكويت.. الخ.

* * *

نحن الآن لا نتكلم فى السياسة، وإنما فقط نطلب بعض الأحترام للدين، فإقحام الدين على هذا النحو لا يسىء إلا اليه. وأنا أريد أن أزعم أن الموقف العلمانى هو أكثر أحتراما للدين، مائة مرة، من هذا الموقف الذى نصفه الآن. فالعلمانى يريد أن يحتفظ لنفسه بحرية التصرف فيما يتعلق بمصالح الناس اليومية دون تدخل مستمر ممن يزعم بأنه ظل الله على

الأرض، ولكنه فى نفس الوقت يعترف بحق كل صاحب دين فى أن يمارس دينه بمطلق الحرية أيضا، بل ولا يمنع موقفه العلمانى هذا من أن يكون هو نفسه متدينا ورعا. بينما يلجأ أولئك الذين يقحمون الدين فى كل صغيرة وكبيرة من شئون الحياة إلى وضع الدين فى الصفوف الأمامية فى كل معركة دنيوية يخوضونها، ويختفون وراء الدين بأطماعهم الشخصية التى هى فى معظم الاحيان أطماع مادية صرف، فلا يصيب الحجارة وتمزيق الثياب إلا الدين نفسه، ويبقون هم، هؤلاء المتظاهرون بالتدين والورع، فى مأمن يحتمون بإدعائهم أنهم لا يقولون قولهم هم بل قول الله. أما القول بأن الإسلام «دين ودنيا» فأنى أفهم الجانب الدنيوى فيه بمعنى «الاخلاق» وليس بمعنى اتخاذ موقف من استدعاء الأمريكيين إلى حفر الباطن أو عدم استدعائهم.

* * *

عندما تأملت ما يقال اليوم باسم الدين فى المعركة الدائرة بين صدام حسين وخصومه تذكرت مقالا كتبه منذ بضعة شهور أحد المشتركين فى هذا الصراع الدائر اليوم، وكان يتكلم حينئذ فى موضوع اقتصادى، وتطرق لسبب لا أذكره إلى التقسيم الشائع بين الاقتصاديين لعناصر الإنتاج إلى ثلاثة: الأرض والعمل ورأس المال، بينما يقسمها البعض إلى أربعة: الأرض والعمل ورأس المال والتنظيم، فقال كاتبنا المتحدث بأسم الإسلام، أن عناصر الإنتاج فى الحقيقة خمسة، واضاف «الله» كعامل من عوامل الإنتاج، زاعما أن هؤلاء الذين يقسّمون عناصر الإنتاج إلى ثلاثة أو أربعة ينسون أن الله هو أيضا عنصر فعّال من عناصر الإنتاج. لقد أصابنى وقتها من الذعر

والدهشة ما جعلني أعود فأتذكر هذا الكلام الغريب كلما وجدت الدين يقحم بغير حق في مسائل دنيوية بحت. وقلت لنفسي: هل وصل الأمر بنا إذن إلى حد أن نظن أننا نحسن إلى الله ونمجّده بجعله العنصر الرابع أو الخامس من عناصر الإنتاج؟ بل لا أخفي على القارىء أن ذهني انصرف مباشرة إلى الجاهلية، وسألت نفسي عما إذا كانت هذه هي الجاهلية بعينها: تجسيد فكرة الالوهية في المحسوسات، وتصويرها في صور المخلوقات، والهبوط بها إلى مشاغل البشر اليومية التافهة، واستخدامها لاضفاء المشروعية على أحقر الدوافع ولمباركة أسفل الحروب. فها نحن بدورنا نستخدم الدين لتبرير أسفل الأعمال ولمباركة أحقر المعارك.

فهل نسيء بذلك إلى أحد أكثر مما نسيء إلى الإسلام؟ أليس الأجدر بنا أن نخوض معاركنا السياسية بحجج سياسية ونصفّي حساباتنا الشخصية بأنفسنا، ونسوّي مشاكلنا، بين بعضنا البعض، كالرجال، دون أن نتخذ من الدين ستارا لأطماعنا وأهوائنا؟

(٨)

حرب الخليج.. وعالم جورج أورويل

نحن جميعا على اتفاق، فيما أظن، على أن حرب الخليج قد تميزت عن سائر الحروب بذلك الدور المدهش الذى قامت به خلالها وسائل الإعلام، وعلى الأخص شبكة التليفزيون الأمريكية «سى. ان. ان» (C.N. N.) . وقد جلست عند بداية الحرب أمام التليفزيون بضع مرات، لأشاهد هذه القناة الخطيرة، واستمعت إلى المتحدث بأسم وزارة الدفاع الأمريكية وهو يدلى بتصريحات عن آخر تطورات الحرب، وقد جلس أمامه عشرات من مندوبى الصحف والاذاعات وشبكات التليفزيون يسجلون تصريحاته بعناية واهتمام لا حد لهما، ويمطرونه بالاسئلة، وهو يجيب عليها رابط الجأش وبكفاءة وفصاحة منقطعى النظير.

على أن أعترف للقارىء بأنى بعد أن رأيت هذا على قناة C.N. N.

مرتين أو ثلاث مرات وأستمعت إلى نشرتها الاخبارية مرة أو مرتين، توقفت تماما عن مشاهدتها، وكنت كلما مررت بالحجرة التي وضع فيها التليفزيون ورأيت أسم .C.N. N على الشاشة وقد تجمع حولها بعض أفراد أسرتي بانتباه شديد، أسرعت بالهرب حتى لا أرى ما يعرض من صور ولكيلا أسمع ما يقال.

ذلك أني منذ رأيت لأول مرة ذلك الشاب النحيف الانيق المتحدث بأسم وزارة الدفاع الأمريكية يجيب على أسئلة الصحفيين شعرت بنفور عظيم منه، إذ أنه بدا لي وكأنه يجسّم كل ما أكرهه فيما يسمى بوسائل الإعلام الحديثة: الكفاءة منقطعة النظير في الكذب، والالحاح المستمر على الناس لحملهم على تصديق ما لا يجب أن يصدق، والبرود وانعدام الاحساس في نقل أفظع الأخبار، وتضخيم أتفه الأخبار وكأنها بالغة الاهمية، وإهمال أخطر الأمور وكأنها شديدة التفاهة. ثم جاءت وجوه المذيعات وطريقتهن في الكلام لتؤكد شعوري بأني لست أمام كائنات بشرية بل أمام وجوه من الشمع تتحرك شفاهها طبقا لنظام مبرمج معد سلفا وجرى التدريب عليه ويستهدف لا الإعلام بل غسيل المخ، أو بالاحرى تلويثه.

توقفت إذن عن متابعة شبكة .C.N. N بعد أيام قليلة من بداية الحرب، ولكن هذا لم يمنع من أن أسمع من الآخرين إشارات متناثرة إلى ما يقال فيها، أو أن أرى رغما عني لبضع دقائق ما تبثه هذه الشبكة على الناس. وأكد لي ما سمعته أو رأيته شعورا كان ولا يزال يتنامى لدى منذ سنوات، وهو أن ما كان يتوقعه جورج أورويل قد تحقق بالفعل أو كاد أن يتحقق بالكامل. وجاءت شبكة .C.N. N لتنبئنا على نحو لا يقبل الشك

بأن عالم جورج أورويل قد حلّ بنا بالفعل.

هذه الشبكة القديرة عرضت علينا صورة قيل لنا أنها لطائر بحرى مسكين أصابته بقعة الزيت التى انتشرت فى مياه الخليج منذ أن فجّر صدام حسين أنابيب النفط، ثم عرفنا أن الصورة التى رآها الناس لم تكن لطائر بحري فى الخليج بل هى لطائر بحرى أصابه مكروه مماثل ولكن فى مكان آخر من العالم، ومنذ سنوات عديدة، واستعيرت الصورة لاحداث الأثر المطلوب. إن جورج اورويل كان قد حكى فى روايته الشهيرة (١٩٨٤) أشياء كثيرة مماثلة، مما كان يقوم به بطل الرواية الذى كان يشتغل فى وزارة الحقيقة (وزارة الإعلام الآن)، فقد كان من مهامه القيام بمثل هذا الاستبدال لصورة بأخرى، وخبر بغيره، واحلال أسم محل أسم.. الخ، وذلك خلال عمله الخاص بالتصحيح المستمر للتاريخ طبقا لآخر التعليمات. ولكن جورج أورويل ذهب إلى أبعد من هذا بكثير، فقد تكلم عن «لغة جديدة» تماما، تصور أنها سوف تظهر فى المجتمع الحديث، يستغنى فيها عن كلمات قديمة كانت شائعة ثم لم تعد ثمة حاجة اليها، «كالشرف» و «العدل»، وتدخل فيها كلمات جديدة لم تكن معروفة للتعبير عن أنواع جديدة من السلوك والعلاقات، وتتعرض فيها بعض الكلمات لتغيير أساسى فى معناها بحيث يصبح من الممكن عن طريقها قبول المتناقضات المستحيلة وكأنها ممكنة. تذكرت ذلك عندما سمعت تلك العبارة الرائعة "Friendly Fire" أو «النيران الصديقة»، والمقصود بها الحالة التى يحدث فيها القتل بيد صديقة أو حليفة، تمييزا لها عن حالة القتل الذى يرتكبه عدوّ. ولكنى احترت حيرة عظيمة وأنا أحاول أن أقرر ما إذا كان الموت يعتبر بنيران صديقه أو لا

يعتبر كذلك فى حالة ما إذا حدث مثلا أن قتل مصرى وهو يحارب فى صف الكويتيين، بيد مصرى آخر يحارب فى صفوف العراقيين: هل تعتبر النيران فى هذه الحالة صديقة أم غير صديقة؟ وبالعكس، لنفرض أن المصرى الذى يحارب فى صفوف الكويتيين قتل خطأ بيد أمريكى يحارب فى صفوف الكويتيين أيضا، هل يعتبر الموت فى هذه الحالة قد حدث بيد صديقة أو عدوة؟

الأمر إذن، كما لا بد أن القارىء قد لاحظ، أورولىّ للغاية. إذ فليتأمل القارىء هذا الاستخدام الجديد، والذى لا يخلو من طرافة، لعبارة «ضبط النفس»، عندما استخدمت لوصف إسرائيل إذ أمتنعت عن رد الصاع صاعين للعراق، بعد أن وقعت عليها بضعة صواريخ عراقية معظمها لم يصب أحدا بسوء. فى سبيل هذا الضبط للنفس تقدمت إسرائيل بطلب للولايات المتحدة للحصول على مبلغ ١٣,٥ بليون دولار، ووعدت الولايات المتحدة بالنظر فى الطلب بعين العطف. وقد وجدت استخدام عبارة «ضبط النفس» لوصف السلوك الإسرائيلى غريبا للغاية، إذ أنى واثق من أن هذا السلوك لم يكن ضبطا للنفس بل كان تنفيذا لغرض فى النفس سيتضح فيما بعد (بل لعله بدأ يتضح بالفعل عندما سمعنا مؤخرا أن المملكة السعودية وعدت ببذل جهدها لدفع بقية البلاد العربية التى لم توقع بعد على معاهدة للصلح مع إسرائيل أن تقوم بهذا التوقيع، بعد أن اتضح أن إسرائيل شريفة إلى هذا الحد ونبيلة إلى هذا الحد وقادرة إلى هذا الحد على ضبط النفس) ولكن حتى لو أعتبرنا هذا السلوك من جانب إسرائيل ضبطا للنفس بالفعل، فسيظل الأمر محيّرا، إذ أنى أعرف اشخاصا كثيرين

أظهروا فى حياتهم قدراً من ضبط النفس يفوق بمراحل ما أظهرته إسرائل ولم يحصلوا مقابله على شيء. إذ فلنتأمل مثلا ضبط النفس الذى أظهره الشعب المصرى على مر السنين، ولا يزال، فى الاتوبيسات والقطارات التى ليس فيها مكان لقدم، ولم يحصل الشعب المصرى من وراء ذلك على شيء، بل فلننظر إلى ضبط النفس الذى أظهره الشعب المصرى والعرب بصفة عامة لمدة تزيد على أربعين عاما إزاء ما تفعله إسرائيل بالفلسطينيين، ولم يحصلوا مقابل ذلك على شيء.

قال اورويل أيضا أن من ملامح اللغة الحديثة الاختصار الشديد فى كتابة كثير من الكلمات، والاكتفاء بالحروف الأولى فى الإشارة اليها حين يراد اخفاء حقيقة أو تجنب اثاره المشاعر التى تثيرها الكلمات الكاملة. فها هى ذى حرب الخليج تستخدم الحروف الأولى: (كيه. آى. ايه.K. I.A) و(دبليو. آى ايه.W. I.A) و (ام. آى. ايهM. I.A) للإشارة إلى من «قتل فى الحرب» أو «جرح فى الحرب» أو «فقد فى الحرب»، كما يستخدم الحرفان (تى. او.T.O) للإشارة إلى «أرض المعركة»، التى تسمى الآن «مسرح العمليات»، وكأننا بصدد مسرحية للتسلية وليس حربا تسال فيها الدماء.

لاحظت أيضا فى المرات القليلة التى شاهدت فيها .C.N.N. أن هذه الشبكة التى تزعم الحياد ويزعمون لها الحياد، كانت حريصه على أن ترينا دموع سيدة إسرائيلية هدم بيتها، ولكنها لا ترينا دموع العراقيين الذين رأو أهوالا أكبر بكثير. إنها تظن أن الحياد يتأتى بإذاعة بيانات صدام بعد إذاعة بيانات بوش، ولكن إذاعة كذب من هنا وكذب من هناك لا يصل إلى

مستوى إذاعة الحقيقة، ودعاية أمريكية مضافا إليها دعاية عراقية لا تحوّل الدعاية إلى حوار، ولا تجعل من تبادل الشتائم والأكاذيب تحليلاً علميا.

لقد لاحظت على كثير من أصدقائي الذين كانوا يواظبون على مشاهدة ما تبثه شبكة.C.N. N، أنهم كانوا يعانون بشدة مما يرون ويسمعون منها، تبرما وضيقا وحزنا وكآبة، ومع ذلك استمروا فى متابعتها ظنا منهم أن هذا الحزن وهذه الكآبة سببهما ما يحدث، وليس السبب طريقة.C.N. N فى رواية ما يحدث. لقد كان الأمر بالطبع مأساة نادرة المثيل، ولكنى لا أجد أى سبب معقول يضطرنى إلى أن أتتبع أخبارها من فم أفاق، أعطانى ألف دليل على أنه لا يكف عن الكذب.

هذه المأساة عانى منها عامة الناس وبسطاؤهم أكثر مما عانى الصفوة وعلية القوم، لأسباب كثيرة لا تخفى على اللبيب. شىء واحد فقط امتاز به عامة الناس وبسطاؤهم ولم يعانوا فيه مثلما عانى الصفوة وعلية القوم. وهو أنهم كانوا أقل قدرة على متابعة ما تبثه شبكة .C.N. N وأقل قدرة على فهم ما تقول. فحتى إذا جلسوا أمام شاشة التليفزيون واستمعوا إلى ما تقوله.C.N. N فالارجح أنهم لن يضاروا منها بنفس القدر الذى يضارّبه المتعلمون والمثقفون. هذا أيضا أدركه جورج اورويل، كما نتبين مما كتبه فى رواية «١٩٨٤»:

«إن عامة الناس هم وحدهم الذين لا زالوا يحتفظون بقواهم العقلية، وذلك بفضل عجزهم عن الفهم. لقد بلعوا كل شىء ولم يلحقهم الضرر من وراء ذلك، إذ أن ما دخل أمعدتهم خرج منها دون أن يترك وراءه أى أثر، وكأنه حبة من الذرة تمر بجسم العصفور وتخرج منه دون أن يهضمها».

(٩)

عن أحزان سامية وبدريّة وعواطف وهنية

لم أستسغ قط قول البعض إن حرب الخليج هى حرب الفقراء ضد الأغنياء. كان القائلون بذلك يقصدون بالطبع أن جبهة العراق تمثل فقراء العرب وجبهة الكويت تمثل أغنياءهم. ولكن هذا القول لا يمكن استساغته، فالعراق ليست بالضبط من البلاد العربية الفقيرة، بل كانت قبل حربها مع إيران على الأقل، من أعلى البلاد العربية دخلا. والنظام العراقى لم يشهد له تاريخه، منذ تولى حكم العراق فى ١٩٦٨، بأنه كان نصيرا للفقراء، سواء فى معاملته لفقراء العراق أنفسهم أو فى معاملته لبؤساء الاكراد، أو للمشردين من العمال المصريين. وسكان الكويت، وإن كانوا يضمّون بعضا من أغنى أغنياء العرب، يتكوّن معظمهم من عمالة مهاجرة من مصر أو

اليمن أو الأردن أو الهند أو الفلبين.. الخ، ممن هم أقرب إلى الفقر منهم إلى الثراء.

ومع ذلك فإن لهذه الحرب بالفعل جوانب طبقية هامة، وسيظل التحليل الطبقى لأى حادث سياسى أو اجتماعى جسيم، كهذا الحادث، على قدر عال من الأهمية، ولن يقلل من صحة هذا كل ما يقال من كلام فارغ عن نهاية اليسار وإفلاس الفكر اليسارى، وسيظل التحليل الطبقى، مهمًا، أيا كانت درجة انفتاح جورباتشوف على الغرب.

* * *

إن لماركس كلمة مشهورة ترجمتها «أن العمال لا وطن لهم»، وكثيرا ما استخدمت هذه العبارة ضد الماركسية، إذ فسرت بمعنى أن الماركسية تعادى القومية، فقد قيل إن ماركس يحضّ بها العمال على التنكر لأوطانهم. ولكنى أفهم هذه العبارة بمعنى قريب من المعنى الذى كان السياسيون الاقطاعيون فى مصر من رجالات حزب الأمة، يقصدونه بقولهم «نحن أصحاب المصالح الحقيقية» لتبرير قيامهم بالحديث بأسم الأمة، باعتبارهم هم مالكى الثورة فى مصر.

إن ماركس كان يقصد على الارجح أنه على الرغم من كل ما ترفعه البورجوازية من شعارات الوطنية، يستخدمونها فى الزج بالعمال فى معارك وكأن الوطن ملك للجميع، بورجوازية وعمالا، فإن الحقيقة هى أن هذه المعارك لا يستفيد منها إلا البورجوازية نفسها، وأن «خيرات الوطن» لا

تذهب للعمال، وإن كانوا هم وحدهم الذين يقومون بإنتاجها والدفاع عنها إذا تعرضت للتهديد. بهذا المعنى يظهر لنا أن العبارة تحمل الكثير من الحق: العمال لا يحصلون إلا على نصيب صغير من الثمرات، ولكنهم دائما يدفعون الجزء الأكبر من فاتورة الحساب. «البورجوازيون» يختفون وقت الضرب، ويظهرون عندما يحل موعد تقسيم الغنائم. هذا هو أحد الجوانب الهامة والصحيحة من جوانب التحليل الطبقى لحرب الخليج، وهو أيضا من أشد جوانب هذه الحرب قسوة وإيلاما.

* * *

عندما بدأ الغزو العراقى للكويت فى ٢ أغسطس كان من الطبيعى أن يكون أول من يغادر الكويت أغنياؤها. بل الواقع أن معظم أغنيائها كانوا قد غادروها بالفعل قبل أن يهجم حر أغسطس، الأمر الذى لا يقدر على تحمل نفقاته بالطبع فقراء الكويت وفقراء الهند وسيريلانكا ومصر.. الخ المقيمون بالكويت. فلما حدث الغزو، كانت سهولة الرحيل وسرعته تتناسب مع القدرة الشرائية، فإذا كان قد وقع اغتصاب بالفعل فالارجح أن تكون نسبة ضحاياه من الفقراء أكبر بكثير منها فى غيرهم.

ولكن إذا كان الفقراء هم آخر من يرحل، فالارجح أنهم هم أول من يرجع. فالبيوت المهدمة تحتاج إلى إعادة بناء، والطرق والمرافق تحتاج إلى إصلاح، والمتفجرات المخبأة تحتاج إلى من يبحث عنها ويبطل مفعولها، وهذا كله يحتاج إلى عمالة تنتظر على أحر من الجمر فرصة العودة لكى تتمكن من ادخار ما ترسله إلى الأهل المتطلعين إلى هذه التحويلات فى شوق، لكى

يتمكنوا من مواجهة أعباء الحياة. بعد إتمام ذلك يمكن للميسورين من «أصحاب المصالح الحقيقية» أن يعودوا على مهل حيث يجدون الجميع في استقبالهم، وقد تم إصلاح كل شيء، وعادت الحياة إلى ما كانت عليه.

لا أريد أن أبالغ، فهناك بالطبع من ميسوري الحال من بقى فى الكويت، مضطرا أو مختاراً، بل ومنهم من دفع حياته ثمنا للدفاع عن شرف وطنه، ومن أثرياء الأجانب من لم يكف لحظة عن الحركة ذهابا وإيابا من أمريكا وأوربا إلى الطائف لتوقيع العقود المتعلقة بإعادة البناء والتعمير، ومنهم بلا شك من سيسرع إلى الكويت، إن لم يكن قد ذهب إليها بالفعل، لوضع هذه العقود موضع التنفيذ. نعم، من هؤلاء من يتصببون عرقا وهم يلهثون للحصول على عقد بيع أو توكيل أو مقاولة. وأنا لا أزعم أن الثراء يأتى بسهولة للجميع، فالبعض يضحى براحته ويعرض نفسه للمخاطر فى سبيل بضعة ملايين إضافية من هنا أو هناك، وكثيرون من هؤلاء يضطرون إلى إراقة ماء الوجه تزلفا لهذا الامير أو ذاك، قبل أن يحصل على العقد المرجو أو الصفقة المشتهاة. ومع كل ذلك أعتقد أن الحقيقة لا زالت هى أن الغالبية الساحقة من ضحايا حرب الخليج كانوا هم الفقراء، والغالبية الساحقة من المنتفعين بها كانوا من الأثرياء.

من الملفت للنظر أيضا أن الأمر لا ينطبق على سكان الكويت أو العرب وحدهم، بل ينطبق أيضا على الجيش الأمريكى نفسه. فلقد سمعنا من الأمريكيين أنفسهم من يقول أن نسبة تمثيل السود فى القوات الأمريكية فى الخليج أعلى بدرجة ملحوظة من نسبتهم إلى مجموع السكان، كما قال بعضهم أنه من النادر أن تجد بين أفراد هذه القوات شخصا ينتسب لأسرة

ذات مكانة رفيعة فى المجتمع، كأن يكون أبوه عضوا فى الكونجرس الأمريكى أو عمه وزيرا فى الحكومة الأمريكية أو خاله رئيسا لمجلس إدارة شركة عملاقة.. الخ.

إنما كان أكثر ما لفت نظرى إلى هذا الجانب من المأساة تلك القائمة التى نشرتها جريدة الأهرام فى صفحتها الأولى بمجرد أن أعلن عن وقف إطلاق النار، والتى تضمنت أسماء الشهداء المصريين العشرة والبلاد التى أتوا منها. تصدر القائمة أسم الشهيد النقيب شريف مصطفى عبد الرازق، ثم جاءت بعد ذلك أسماء تسعة جنود. أصابتنى دهشة شديدة إذ وجدت أنه فيما عدا النقيب شريف، الذى أتى من محرم بك بالأسكندرية، ليس من بين التسعة الآخرين شخص واحد مسقط رأسه القاهرة، أو عاصمة محافظة، وإنما كان مسقط رأس الشهداء التسعة: كفر عسكر، مركز تلا- كفر بهنس- مركز قويسنا، البلينا، سوهاج- نجع سرور، سوهاج- عزبة جزيرة الشافعى التابعة لعزبة الصوفية مركز أولاد صقر، شرقية- قرية عرب درويش مركز فاقوس- بلدة المسيحة من نواحى المنصورة- التل الكبير، شرقية- دسوق، كفر الشيخ.

ليس هناك إذن شهيد واحد من مصر الجديدة أو الدقى أو المهندسين، ناهيك عن الزمالك أو جاردن سيتى. فى اليوم التالى قامت جريدة الأهرام مشكورة بنشر تحقيق أجرته عن الشهداء العشرة، وإن كان التحقيق يحمل عنوان «شهداء مصر التسعة». قلت لنفسى وأنا أقرأ التحقيق: هذا هو فى نهاية الأمر ما يهم من القصة كلها: شباب يتراوح عمره بين ٢٢ و ٢٨ سنة، فقد حياته بسبب عمل إجرامى ارتكبه البعض، سواء كان المجرم الحقيقى من

داخل العالم العربى أو خارجه. بعض من فقد حياته كان يحمل شهادة عليا وبعضهم لا يحملها، ولكنهم كلهم لهم آباء وأمهات وأشقاء وشقيقات كانوا يأملون أن يعود اليهم أولادهم أو أشقاءهم بالسلامة فلم يتحقق أملهم. مرة أخرى لفت نظرى ما ذكرته جريدة الأهرام عن وظيفة أو مهنة كل من الشهداء قبل الحرب، فإذا بى لاأجد شخصا واحدا منهم ينتمى إلى تلك الشرائح الاجتماعية التى اصطلحنا فى السبعينات على تسميتها «بالطفيلية»، بل هم بين مزارع ومدرس ومهندس زراعى، وأسماؤهم مصرية صميمة كخميس وعلام وحامد وعبد العظيم وصبحى وزغلول وصفوت عجيب، وشقيقاتهم أم هاشم والسيدة وسامية وبدرية وعواطف وهنية ورضا. هؤلاء هم الذين يزرعون فى وقت السلم ويستشهدون فى وقت الحرب.

ليس هؤلاء بالطبع هم فقط شهداء مصر فى الخليج. بل هؤلاء هم فقط من رأت جريدة الأهرام من المناسب أن تورد أسماءهم. ففى اليوم التالى ذكرت جريدة الأهرام نقلا عن صحيفة فاينانشيال تايمز البريطانية «أن القوات العراقية قامت بقتل ما يزيد على عشرين من المصريين انتقاما من موقف مصر فى الحرب». هؤلاء المقتولون أو المعتقلون لم يبقوا فى العراق بعد ٢ أغسطس إلا لسبب قاهر بالطبع: إما بسبب ما سمعوه عن مخاطر طريق العودة أو، وهو الارجح، بسبب معرفتهم لما ينتظرهم هم وأسرهم من ضائقة مالية إذا عادوا إلى مصر. ولكن هؤلاء العشرين على أى حال، ليسوا إلا حفنة صغيرة من آلاف مؤلفة من المصريين الذين كانوا ولا زالوا فى العراق، لا ندرى بعد ما إذا كانوا يعدون بعشرات الالآف أو مئات الألوف، فالاجهزة الاحصائية وهيئاتنا القنصلية والدبلوماسية لم تجد من

الضرورى أو من الممكن احصاءهم وعدهم سواء بقوا فى مصر أو سافروا بحثا عن عمل فى العراق أو الكويت، ولا تكتب عنهم الجرائد القومية أو المعارضة، وإنما تكتب فقط عن عينة مختارة منهم، تسعة أو عشرة يكتفى بهم لتمثيل الكل، ثم ينساهم الجميع نسيانا تامًا، فى زحمة الاهتمام بنظام الأمن العربى الجديد الذى يجرى وضعه للمنطقة، وكأن هناك أى هدف لأى نظام أمن، عربى أو غربى، أهم من حماية أرواح خميس وعلام وحامد وعبد العظيم وزغلول وصفوت عجيب، وأهم من أحزان شقيقاتهم سامية وبدرية وعواطف وهنية.

* * *

بعد إعلان وقف القتال التقط بعض المراسلين صورا لأعداد غفيرة من الجنود العراقيين السائرين فى الصحراء شمالا عائدين إلى العراق، وصفهم المراسلون بأنهم فى حالة يرثى لها من التعب والجوع (ناهيك بالطبع عن الاحباط)، وأن كثيرين منهم فقدوا أحذيتهم فساروا حفاة، ثم صورا لأعداد غفيرة أخرى يسيرون فى الإتجاه المضاد: كويتيون ومصريون راجعون من العراق ويتجهون جنوبا إلى الكويت، بعد أن أطلقوا من الأسر أو أصبح رحيلهم من العراق ممكنا. تقابل الفريقان فى الطريق: العراقيون المتجهون إلى الشمال والكويتيون والمصريون المتجهون إلى الجنوب، والتطقت لهم صور وهم يلوّحون لبعضهم البعض بالتحية. طبعا، ولم لا؟ لا هؤلاء ولا هؤلاء حملوا للآخرين أى ضغينة فى أى وقت من الأوقات، ولم يكن لأى منهم ناقة ولا جمل فى هذه الحرب، ولم تدر بذهن واحد منهم فى أى وقت فكرة بهذه الحماقة. ربما كان لبعض الكويتيين العائدين إنتماءات طبقية

تختلف عن إنتماءات الباقين، ولكن ها هى ذى لحظة صدق قصيرة ينسى الجميع فيها كل شىء إلا هذه الحقيقة الوحيدة: أننا جميعا نتكون من دم ولحم وعروق وأعصاب، تحمل أذهاننا ذكريات وقلوبنا بعض الآمال، نتألم إذا جرحنا ويبكى أهلنا إذا متنا. هذا هو ما كان يدركه بوضوح السائرون إلى الشمال وإلى الجنوب، الذين كانوا يتقاتلون منذ لحظة، ثم لوّحوا لبعضهم البعض بالتحية.

كتب أخرى للمؤلف

- **مقدمة إلى الاشتراكية**، مع دراسة لتطبيقاتها فى الجمهورية العربية المتحدة، مكتبة القاهرة الحديثة، القاهرة، ١٩٦٦.
- **الماركسية**: عرض وتحليل ونقد لمبادىء الماركسية الأساسية فى الفلسفة والتاريخ والاقتصاد ، مكتبة سيد وهبة، القاهرة، ١٩٧٠.
- **المشرق العربى والغرب**: بحث في دور المؤثرات الخارجية فى تطور النظام الاقتصادي العربي والعلاقات الاقتصادية العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ٧٩- ١٩٨٣.
- **محنة الاقتصاد والثقافة فى مصر**، المركز العربى للبحث والنشر، القاهرة، ١٩٨٢.
- **تنمية أم تبعية اقتصادية وثقافية؟** مطبوعات القاهرة، ١٩٨٣.
- **الاقتصاد والسياسة والمجتمع فى عصر الانفتاح**، مكتبة مدبولى، ١٩٨٤.
- **قصة ديون مصر الخارجية من عصر محمد على إلى اليوم**، دار على مختار للدراسات والنشر، القاهرة، ١٩٨٧.
- **نحو تفسير جديد لأزمة الاقتصاد والمجتمع فى مصر**، مكتبة مدبولى، ١٩٨٩.

مصر فى مفترق الطرق، دار المستقبل العربى، القاهرة، ١٩٩٠.

رقم الايداع ٩١/٤٨١٢
I . S . B . N .
977 - 208 - 047 - 8

مطبعة اطلس
imprimerie atlas

LE CAIRE 11-13 RUE SOUK EL TEWFIKIEH.R.C 100731.TEL 747797
القاهرة : ١١-١٣ شارع سوق التوفيقية س.ت ١٠٠٧٣١ ت ٧٤٧٧٩٧

هذا الكتاب

أثارت مأساة غزو الكويت، ما تلاها من قتال، كل هموم المواطن العربى من جديد: نكأت كل جروح الماضى، وجسّمت بوضوح لا مثيل له كل هموم الحاضر ومخاوف المستقبل: القهر فى السياسة، والتبعية فى السياسة والاقتصاد، والنهب الدولى المنظّم لثروة العرب، والتزييف فى وسائل الإعلام، وانتهازية كثير من المثقفين، والاستخدام غير اللائق للدين من جميع الأطراف، لخدمة مصالح ذاتية.

يتناول د. جلال أمين فى هذا الكتاب كل هذه الجوانب بالمناقشة والتحليل، بأسلوبه السهل الممتنع. قد يختلف معه الكثيرون، ولكنهم سيجدون فى هذا الكتاب وجهة نظر متكاملة تصدر عن موقف وطنى، وعن فكر ناضج متحرر من الهوى الشخصى، ومن الشعارات الإنشائية والقوالب المحفوظة.

مكتبة مدبولى